
روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
ماوراء الطبيعة
حلقة الرعب
١٠
عدد ممتاز


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٠

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

حلقة الرعب

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة

الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ/ حمدي مصطفى

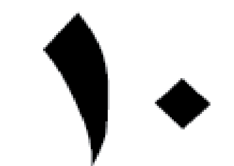
●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ٨، ١٠ شارع المنطقة
الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٠، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة – ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري
روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٠٠٤ – ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة



حلقة الرعب

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق

عدد ممتاز



مقدمة..

منتصف الليل...

النوم قد جافاني.. والسعال يعابث شعيباتي الهوائية.. وفناجين القهوة العديدة تحتشد في خلايا مخي داعية إياي كي أكتب قصة أخرى..

هل تعرفون من أنا...؟

تعرفون...

لكني أرى بينكم وجوهًا جديدة بريئة لم يسعدني الحظ بالجلوس معها من قبل، لهذا أقول - لهذه الوجوه فحسب - أن إسمي هو (رفعت إسماعيل).. شيخ فان يملك مئات القصص المفزعة التي كان طرفًا فيها بشكل أو بآخر...

ماذا أحكي لكم اليوم...؟...

في هذه المرة لن تكون حكايتي كالتي تعودتموها من قبل، سأحكي لكم قصصًا عدة قصها علي بعض الأصدقاء في أمسية شتاء رهيبة.. وكان محورها جميعًا هو الخوف.. الخوف الموروث غير المبرر الذي نحمله بين ضلوعنا ولا نجد له منطقًا ولا نهاية...

إن الطقس بارد حقًا...

اقتربوا يا رفاق من مجلسنا وخذوا أماكنكم.. هل لكم في قدح من (الكاكاو) أو حفنة من (أبو فروة)؟.. هل تحبون أن تقتربوا أكثر من المدفأة؟..

إفعلوا ما يحلو لكم..

لأن الليلة ليلة غير عادية.. واللقاء غير مسبوق...

إنها حلقة الرعب...

حلقة الرعب..

- أنا أمقت الشمس والزهور!

قلتها مشعلًا سيجارتي مديرًا ظهري لهم، لمدة ثوان لم يصدقوا أنني قلت ذلك، ثم أنهم انفجروا ضاحكين في هستيريا..

سمعت صوت (عادل) الضاحك:

- لن تتغير أبدًا يا (رفعت).. دائمًا نفس التعليقات والآراء الشاذة التي تتعمدها

لمجرد الغرابة..
وصوت (سهام) الساخر:
- معنى هذا أنك تحب الظلام والوحل؟!
وصوت (هويدا) الحاني:
- أنا أفهم ما يعنيه.. إنه يعشق الغموض والخيال، لكن الشمس والزهور أشياء واضحة مألوفة إلى حد لا يطاق..
وصوت د. (سامي) يقول برزانة:
- إن الشخصيات المكتئبة المتجهمة هي نوع من فطر (عيش الغراب) الذي لا ينمو إلا حيث الظلام والرطوبة..، السوداوية لا تنتعش إلا في المطر والرعود..
ثم شعرت بعيونهم تتلاقي على ظهري.. ويسألون:
- وما رأيك أنت يا د. (رفعت)؟..

* * *

ما رأيي أنا؟..

لا أدري حقًا...

من أكون أنا حتى أعرف كنه نفسي..؟

كنت أتأمل الليل البهيم في الخارج ملصقًا أنفي بزجاج النافذة البارد، وقطرات المطر تنهال على الدروب فتتناثر قطرات الوحل هنا وهناك، على حين تتكسر المرئيات عبر خيوط الماء المنزلقة فوق زجاج النافذة ببطء.. ببطء..

ثمة كشاف سيارة هنا أو هناك يمزق الظلام ويدوى صوت الأمواج الممزقة تحت عجلاتها، على حين تتكاثف قطرات بخار الماء الضبابية أمام عيني،

والقشعريرة تغزو عمود الفقري إذ أتصور البرد بالخارج وأقارنه بدفء الداخل..
صوت (أم كلثوم) ينبعث من المذياع باعثًا في قلوبنا مشاعر حزينة تكاد عيوننا تندى لها (كان هذا الخميس يوافق حفل (أم كلثوم) الشهري، وكان احتشاد الأسرة حول المذياع طقسًا مقدسًا في تلك الأيام)..
وللحظة تتوهج الغرفة باللون الفضي الباهر.. ثم.. بروووووم!.. يدوى هزيم الرعد معلنًا تصادم النجوم..
- يا لها من أمسية!
قالها (عادل) وهو يقف خلفي يرنو إلى ما أرنو إليه.. ثم استطرد..
- أعتقد أنه من الحكمة أن نبقى جميعًا هنا حتى تهدأ (النوّة)..

- هي آخر (نوّات) العام..
قال (عادل) في خبث وهو يربت على مؤخرة رأسي:
- يا لك من نحس!.. إنها أسوأ لحظة ممكنة يغادر فيها رجل (القاهرة) ليزور خطيبته في (الإسكندرية)..
- ألا في سبيل الحب ما أنا فاعل..!
وهنا سمعنا صوت مدام (ثريا) زوجة د. (سامي) تدعونا في حماس إلى العشاء، من ثم فارقنا موقفنا عند النافذة الموصدة واتجهنا إلى مقعدين وثيرين في قاعة الجلوس المريحة...
جميلة هي فيللا الدكتور (سامي) وأثاثها ينم عن ذوق سليم.. وكانت ربة الدار حريصة على استخدام المساحات الشاسعة

الخالية من الأثاث مع استعمال لونين فحسب هما الأزرق والأبيض، والإفراط في توزيع نباتات الظل.. كل هذا كان مريحًا للعين إلى حد لا يوصف..

وكانت هناك مدفأة (كيروسين) تتوهج باعثة الدفء المادي والمعنوي في عروقنا، أما الذي زاد الدفء إلى حد لا يمكن التعبير عنه فهو جبل الساندوتشات الذي جلبته لنا ومعه عربة الشاي بما عليها من أقداح أنيقة..

هل تفهم هذه اللحظات؟.. حين يتجمل الوجود وتشعر في روحك برضا قاتل عن الآخرين وعن نفسك..؟.. حين تتمنى أن تظل في هذا الزمان والمكان حتى تموت؟..

لا وقت للتفلسف لأن هؤلاء الزملاء سينسفون الساندوتشات نسفًا - كالمحرومين - والجبل يتناقص.. تعال نر ما تحويه.. لحمًا باردًا.. جبنًا.. لا بأس.. لا بأس...

شرعت ازدرد في جشع حين دنا (عادل) من أذني وهمس:

- ارحم قليلًا..!.. تأكد أولًا من أن (هويدا) تأكل...!

- لكنها تملك مثلي فمًا ويدين...

- إنها اللياقة أيها الهمجي..!.. اللياقة!

حملت ساندويتشًا من البيض (لا أحبه أبدًا) واتجهت إلى (هويدا) وألقيته في طبقها وقلت لها بفم مليء بالطعام:

- كلي هذا..!..

ثم عدت لمقعدي غارقًا في نظرات الحنق التي يصوبها لي (عادل)..

لماذا يرمقني بهذا الشكل؟.. لن أفهمه أبدًا..

شرعنا نأكل في صمت اللهم إلا من صوت المضغ المنتظم..

بعين شبه وقحة أتأمل الجالسين حولي.. تلك المجموعة التي وحدتها الصداقة وقسوة الطبيعة..، تعال أعرفك بهم.. هيا!.. لا تخجل!..

أنت تعرفني جيدًا فلا داعي لأن أصدع رأسك بكلماتي التي حفظتها عن ظهر قلب.. أنا هو أنا دون تفاصيل..

أما هذه الفتاة - نصف الحسناء - فهي (هويدا) خطيبتي.. وجوارها (سهام)

شقيقتها و(عادل) زوج الأخيرة، وهي مجموعة متلاحمة لابد أنك تعرفها إذا كنت قد قرأت مغامرتي مع آكل البشر أو لعنة الفرعون..

أما هذا الملتحي ذو النظارة السميكة فهو (شكري الأشموني).. وهو موظف على المعاش ويمارس أغرب هواية يمكن لإنسان أن يمارسها.. تصوروا أنه - هذا المعتوه - يهوى كتابة قصص الرعب؟!..

ثم أنت تعرف هذا الأصلع ذا النظارة دون شك.. فكر قليلًا..!.. نعم..! هو بعينه د. (محمد شاهين) أستاذ (الأنثروبولوجي) الذي وحدثتي معه حكاية جاري آكل البشر، وهو - كما قلت لك - إنسان بريء إلى حد لا يوصف حتى أنك لو وصفت له

صراعك مع أسدين وجدتهما في غرفة نومك أمس لقضى حياته يصف شجاعتك للناس، ولظل يدخل غرفة نومه في هلع كل ليلة خشية أن يجد أسدين هو الأخر..!..

أما مضيفنا وامرأته - د. (سامي) وحرمه - فمن أكثر الناس رقيًا وتحضرًا وثقافة، ولما لم يكونا قد رزقا بأطفال فإن (السعار الاجتماعي) - ولا أجد لفظة أخف وطأة - كان يدفعهما إلى تصرفات غير عادية مثل دعوتنا إلى العشاء.. تخيل هذا!!..

كان د. (سامي) أستاذًا للأمراض النفسية لكنه لم يدخل عالم النفس من باب كلية الطب.. بل من باب كلية الآداب، لهذا كان يؤمن بأساليب التحليل النفسي ويعلق

صورة (فرويد)1 المرعبة في غرفة مكتبه.. كان أديبًا أكثر منه طبيبًا.

مشكلته الوحيدة هي أنه لا يفتح فاه إلا ليعلمك شيئًا جديدًا، وقد يكون هذا محتملًا بعض الوقت.. أغلب الوقت.. لكنه - بالقطع - غير محتمل طيلة الوقت..

كان د. (محمد شاهين) متواجدًا في (الاسكندرية) وهو – بالصدفة - صديق قديم لمضيفنا.. ثم.. أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور.. فلان يعرف فلانًا.. وعلان صديق علانه.. من ثم تكون الدعوة جماعية، وها نحن أولاء مجتمعون في هذه الأمسية نقضي وقتًا ممتعًا.. لولا الأحوال الجوية السيئة التي جعلت من المتعذر عودتنا لديارنا..

والواقع أن حرم د. (سامي) كانت اجتماعية حقيقة لا تصنعًا، تمقت الأكسجين وتعشق ثاني أوكسيد الكربون.. وكانت سعيدة فخورًا بكل هؤلاء الأوغاد المزدحمين في دارها يأكلون طعامها ويحسون شرابها..، لكن (هويدا) كانت عصبية قلقة لأنها الآنسة الوحيدة الموجودة هنا.. وأمها العجوز وحدها في الدار مع حفيدها إبن (سهام) و(عادل)..، لهذا قربت مضيفتنا جهاز الهاتف منها كي تخبر أمها أنها ستعود متأخرة بعض الشيء، وتطمئنها على أن (سهام) معها وزوجها و..!.. أنا..!..

- ولكني خائفة...
- من أي شيء؟..

قالت (هويدا) وهي ترتجف مقفلة - لا شعوريًا - ياقة قميصها:

- من كل شيء.. البرد.. الظلام.. الأمطار..

ردد (شكري) عبارتها في رصانة وهو يلوك بقايا الساندويتش الأخير، وبدا الشرود على وجهه:

- البرد.. الظلام.. الأمطار..

ثم رفع عينيه تجاهنا.. واستطرد بنفس الشرود:

- مفردات الرعب الأبدية...

أشعلت سيجارة.. وقربت مطفأة السجائر مني.. وقلت:

- وماذا في ذلك؟.. أي جديد في كل هذا؟..

رد (شكري) وهو يشعل سيجارة بدوره ويسحب المطفأة من أمامي.

- إن لدينا كل ما يلزم لقصة رعب جيدة.. البرد.. الظلام.. الأمطار.. ودراما المكان الواحد حيث يجتمع مجموعة من الأشخاص يتوقعون الشر...

- نسيت القمر...

- وعواء الذئاب.. لابد من وجود عواء ذئاب..!

قال (عادل) وقد بدأ الحديث يروق له:

- خاصة إذا ما تخيلنا أن هذه الفيللا تطل على المقابر..!

صاحت (سهام) في هلع وقد توترت أعصابها:

- (عادل)!.. هل جننت..؟

- أنا أمزح يا ملاكي.. أمزح.. أحاول أن أكون طريفًا لا أكثر..!

- وقد فشلت...!

خفض (عادل) رأسه في شيء من الحرجِ على حين واصل (شكري) الكلام معابثًا لحيته كعادته:

- ألا تجدون متعة ما في كل هذا؟..

تبادلنا النظرات لوهلة.. ثم تساءلت (هويدا) في أدب:

- عم تتحدث؟

تأمل طرف السيجارة المشتعل هنيهة.. وغمغم:

- متعة الرعب.. ألا تشعرون بها..؟

- هل تمزح..؟

قالتها وقد تقلص وجهها في إعلان صريح عن سماجته..، إلا أن د. (سامي) تدخل بطريقته الرقيقة المنطلقة مؤيدًا كلام ضيفه:

- إنه يعني ما قال يا آنسة (هويدا).. إن هناك لذة حقيقية في الرعب يعرفها الجميع، ولهذا يدفع الناس مالًا كي يدخلوا دور السينما ليرتجفوا في الظلام مع أفلام (دراكيولا) و(فرانكنشتاين)..، ولهذا يدخلون بيت الأشباح في مدينة الملاهي...

سألت (سهام) وهي تضع ساقًا فوق ساق:

- وما تفسير ذلك؟

- هناك تفسيرات عدة.. قيل أن الرعب الذي ترينه في السينما هو رعب (مروض).. وفي أعتى لحظات الفزع

تقولين لنفسك أن كل هذا وهم.. كله خيال.. وأنك بعد انتهاء الفيلم ستعودين لدارك سالمة..، ولهذا تمارسين في استمتاع هذا التلذذ الماسوشي...

حركت شفتيها في تعثر محاولة نطق الكلمة:

- ما... ماسوشي؟..

- ماسوشي.. أي لذة التعذب.. لذة الشعور بالألم، وهي موجودة لدينا جميعًا بقدر متفاوت.. لكنها دائمًا هنالك.. والدليل هو نجاح أفلام الرعب...

اطفأت لفافة تبغي ونظرت نحو (شكري) متسائلًا:

- وهل كتابة قصص الرعب مجزية يا أستاذ (شكري)..؟

- يا له من سؤال!
- لست مأمور ضرائب.. فلا تخشن شيئًا..
أطفأ بدوره لفافة تبغه.. وأجاب في شيء من المراوغة:
- إنه سؤال لا تتوقع إجابة له.. فالقول أنها غير مجزية يعني أنني فاشل أو غير موهوب، وأنا لن أقول هذا عن نفسي أبدًا..
- إذن هي مجزية..؟
- لا تحاول انتزاع الكلمات من حلقي.. ثم إن (أدب الرعب) في (مصر) مجرد رضيع يحبو وليس له أية جذور عتيقة في تراثنا اللهم إلا قصص (النداهة) و(الغولة) و(المزييرة).. لهذا أتحرك وحدي في الظلام..

- وما جدوى أن يحاول الكاتب إفزاع قرائه؟

- لأنهم يحبون ذلك!

قالها في عصبية وقد بدأ يشعر أنني أحاول استفزازه عمدًا (ولم يكن مخطئًا في الواقع).، وهنا تدخل د. (محمد شاهين) بصوته الواهن:

- ثم أن هناك كتابًا عالميين مثل (إدجار آلان بو) و(برام ستوكر) و(ماري شيللي) كتبوا قصصًا مفزعة ولم يتهمهم أحد بأنهم ليسوا أدباء..

قال د. (سامي) في سرور:

- هذا يؤكد ما قلناه آنفًا.. إن الناس تحب أن تخاف..، ولكن ليكن ذلك خوفًا مقننًا محدودًا..، والآن تأملوا جلستنا هذه.. نحن

جالسون في الدفء والأمان في حين تعربد العواصف والأنواء في الخارج..، أليس هذا مثيرًا..؟ أليس هذا فاتنًا؟.. كل هذا الرعب بالخارج لكننا هنا في مأمن ولن يضيرنا شيء..، عندئذ نشعر باللذة ونتجه نحو زجاج النافذة - كما فعل د. (رفعت) منذ دقائق - كي نرمق الدروب المظلمة ونتخيل ما إذا كان سيحدث لو لم نكن هنا؟!...

قال (عادل) وهو يصب مزيدًا من الشاي لنفسه:

- تأكيدًا على كلامك.. كنا نطلب من جدتنا أن تحكى لنا قصص الجان ثم نتوسل إليها أن تتوقف.. وبعد ثوان نعود لنرجوها دامعين أن تواصل السرد!

وابتسم ابتسامة غامضة وقال:
- وكما قلت أنت: (الرعب المروض).. أحب أن (أتخيل) ما سيحدث لو صادفني مصاص دماء على سلم داري.. لكني لا أحب أبدًا أن يحدث ذلك**!!**
- هذا هو بيت القصيد..
ساد الصمت لبرهة.. ثم قالت (هويدا) في مرح:
- من الغريب أن يكون هنا حشد ممن لهم باع لا بأس به في عالم الرعب..
وأشارت نحوي إشارة ذات معنى:
- (رفعت اسماعيل) خطيبي العزيز الذي تطارده المصائب حيثما ذهب..
وأشارت نحو (شكري).. وابتسمت مستطردة:

- وكاتب قصص رعب.. ربما الوحيد في بلادنا.. و...
والتفتت في اتجاه د. (سامي).. وهمست:
-.. وأستاذ في علم النفس يفهم بواعث الرعب وجذوره..
أضفت أنا مشيرًا إلى د. (محمد شاهين):
-.. وأستاذ في (الأنثروبولوجي) يعرف أبعاد الخوف في الحضارة الإنسانية..
قال (عادل) ناقرًا على صدره:
- وأنا؟.. لست بائع فجل أبدًا وإن لدى - كرجل أمن - ما يقال في هذا الصدد..
قالت (سهام) وهي تربت على ركبته:
- حقًا قلت.. أما أنا فإن لي باعًا لا بأس به في الخوف من الفئران وبالتالي فإنني لن أظل صامتة...

نهضت (هويدا) في مرح كطفلة تلهو.. وصاحت ضامة كفيها:

- فليقل كل منا ما يثير فزعه أكثر من غيره!!

يا لها من فكرة!.. إن هذه الفتاة مخبولة تمامًا..!.. هذا الظلام وذاك الطقس اللعين ثم تقترح هذه اللعبة؟..، لماذا تخليت عنك يا (ماجي)؟.. ما كنت مقترحة شيئًا كهذا قط حتي لو طلبت أنا..

قلت في برود حقيقي:

- يا صغيرتي.. لقد سئمنا جميعًا ألعاب حفلات الكلية هذه!

شد (عادل) معصمي في قسوة.. وغضب:

- (رفعت)!.. إنك تفسد كل شيء وتحيله إلى جهد ثقيل ممل.. ألم أقل لك أن تتحمس ولو مرة واحدة في حياتي؟!

- بلى.. سأتحمس.

وجلست في تعاسة لآخذ دوري في هذه المهزلة..

وبدأت الأصوات تتوالى:

- أخاف الفقر..

- أخاف المرض..

- أخاف الفئران..

- أخاف اللصوص..

- أخاف...

- لحظة يا سادة..

قالها (شكري) رافعًا كفه وقد بدا عليه الملال.. ثم أستطرد:

- كلنا نخاف هذه الأشياء.. وكلنا نعرف أن الآخرين يخافونها، المعضلة الحقيقية هي الفزع غير المبرر.. الفزع الذي لا ندري منطقًا له لكنه يكبلنا بقيوده..

(الفوبيا).. هذه هي الكلمة المناسبة..

قالها د. (سامي) وقد وجد من واجبه أن يعلمنا مصطلحًا جديدًا:

- نعم.. نعم.. (الفوبيا).. هناك مخاوف عديدة في حياة كل منا لا يدري لها مصدرًا ولا تفسيرًا لكنها قائمة..

- يقال أن مصدرها خبرات دفينة في العقل الباطن منذ الطفولة لا نذكرها لكنها تصحو عند اللزوم.. مثلًا.. لماذا نخاف الظلام؟..

هل هي تلك الخبرة القاسية الأولى حين وجدنا أنفسنا وحيدين عاجزين في الظلام بينما أمنا غافية؟!..

بتؤدة قال د. (محمد شاهين) وهو يفرك يديه:

- إذا سمحت لي.. هناك أيضًا نظرية (الوجدان الجمعي).. فحين كان ظلام الليل ينسدل على الإنسان البدائي كان هذا يعني هجوم الدببة والوحوش، وبمرور الزمن لم يعد الخطر قائمًا لكن الخوف ظل حيًا في فصوص عقلنا..، ونفس الشيء ينطبق على خوف المرتفعات (أكروفوبيا) والأماكن المغلقة (كلوستروفوبيا)..

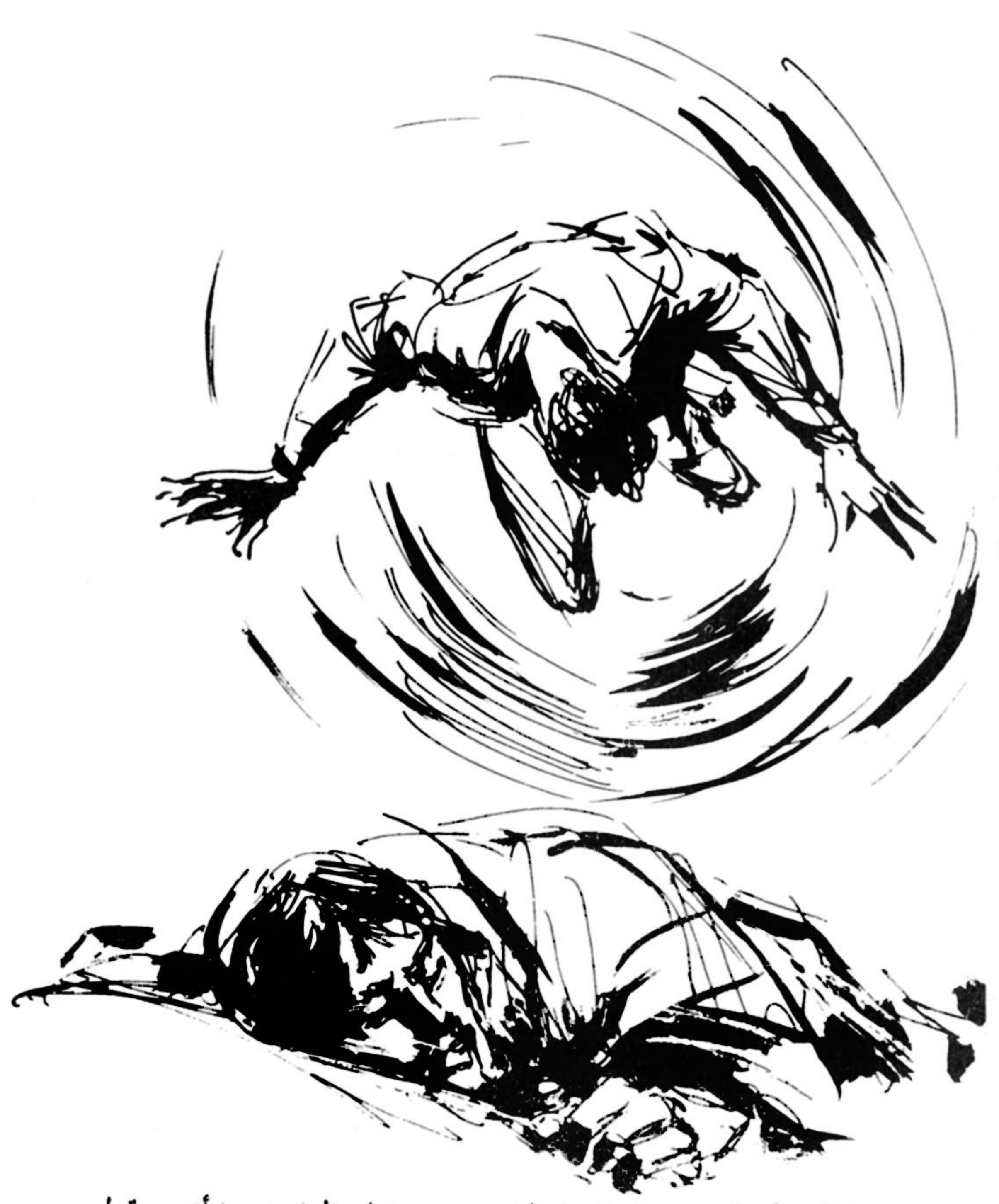
قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى أمام نظرات (هويدا) المتوعدة:

- قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط في هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا في العرق.. هذا الكابوس هو إحياء لذكرى نوم الإنسان البدائي فوق غصون الأشجار حين تتخلى قبضته عن الغصن أثناء نومه.. فيهوي..

ابتسم د. (سامي) في غموض وقال:

- تلاحظ أن كابوس (السقوط) ينتهي دائمًا قبل أن تلمس الأرض..

- صحيح.. ولكن ما معنى هذا؟



قرأت أن كابوس السقوط الشهير حين يحلم الواحد منا أنه يسقط
في هاوية بلا قرار ثم يصحو فجأة غارقًا في العرق ..

- إنه إنذار.. مجرد إنذار وليس فيلمًا سينمائيًا له نهاية..
البريق الفضي.. ثم.. بروووووم!!..
وثبت (هويدا) في صدر شقيقتها ترتجف.. في حين وقف (عادل) متصلبًا وبدت مخايل التوتر على وجوه الرجال..، لماذا يصر هؤلاء الحمقى على كهربة الجو بهذه الأحاديث المسمومة؟.. لماذا لا يتحدثون عن شيء مبهج كالفيضانات والزلازل والمجاعات؟!..
- إن الحديث عن الخوف.. مخيف!
قالتها زوجة د. (سامي) وهي تجمع الأقداح، فنهضت المرأتان تساعدانها على حين د. (سامي) يغمغم وهو يعود لمقعده:
- لكنه يعيننا على فهم أنفسنا أكثر..

قال (شكري) مصرًا على لعبته السخيفة:
- والآن.. ليقل كل منكم ما يخشاه أكثر من غيره..
قلت وأنا أطفئ السيجارة:
- لو سمحتم لي بالبدء.. أعتقد أن (ألفريد هتشكوك) قد تحدث عن ثلاثة كوابيس رئيسية في تحفه الثلاث: (نفوس معقدة) وناقش فيها الخوف من الأماكن الغريبة.. (جنون) وناقش فيها الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم.. (دوار) وناقش فيها خوف المرتفعات..
هز رأسه في فتور بمعنى أن ما أقوله سخيف وغير مفيد.. ثم نظر نحو (سهام) و(هويدا) وزوجة الدكتور.. وسألهن:

- السيدات أولًا.. ماذا يفزع مدام (سهام) غير الفئران؟
نظرت للسقف وهي تمسك الصينية.. وتساءلت:
- فزعًا غير مبرر؟!
- بالتأكيد...
قالت في شرود بعد ثوان من التفكير:
- إنني أخاف المرآة.. أخاف من صورتي فيها وما قد تفعله حين أدير ظهري لها...!
تبادلنا النظرات.. ثم قال (شكري) في رضا:
- لا بأس.. إن المرايا تلعب دورًا لا بأس به في التراث الإنساني.. والخوف والتطير منها معروفان من قدم...
قالت (هويدا) وهي ترتجف كعادتها:

- أما أنا فأخاف الصور المحملقة التي تتابعني عيناها حينما ذهبت..

- هي خدعة بصرية قديمة.. وكل صورة يمكنها أن تتابعك إذا تعمد الرسام وضع المقلة في مركز العين، وكل رسام إعلانات يعرف كيف يعطى هذا التأثير.. وأنت يا مدام (ثريا)..؟

ابتسمت زوجة د. (سامي) وهزت كتفها.. وفكرت قليلًا:

- دعني أفكر.. ما الذي يثير رعبي؟.. نعم.. أنا أخاف كثيرًا مما يحدث على شاشة التلفزيون بعد انتهاء الإرسال حين ننام جميعًا..!

- خوف غير مألوف.. لكنه يعكس الرعب الكامن فينا جميعًا من المجهول..

ثم إنه نظر إلى د. (محمد شاهين) متسائلًا.. فهز هذا الأخير رأسه في تواضع بمعنى أنه لم يستعد للإجابة بعد... ثم غمغم:

- لا أدري حقًا.. لكنني أخاف خوف الحيوانات!

- تعني تخاف الحيوانات؟

- كلا.. أخاف خوفها.. حين يتوتر قطي الأليف أو يبدأ كلب في النباح دون سبب يكاد قلبي يقف هلعًا..

قلت وقد أثارت هذه النقطة ذكرياتي:

- إن ثقة الإنسان في غريزة الحيوان تجعله متأكدًا أن الحيوان يشعر بما لا نراه نحن، وهذا الخوف أثبت نجاحه كمقياس في الزلازل والفيضانات وحرائق الغابات،

ولن أنسى ما أنسى توتر الجمل حين خرج حارس الكهف الرهيب يبحث عني.. ولا فرار الكلاب من طريق (هويدا) ليلة أن طاردها حارس المومياء..

وأنت يا د. (سامي)..؟

قال د. (سامي) في كياسة:

- الكابوس الخاص بي هو: أننا نسافر كثيرًا تاركين الفيللا خالية.. لو أن كاميرا تصوير التقطت ما يحدث فيها في تلك الآونة.. فماذا سنرى على الفيلم عند عودتنا؟!!

وابتلع ريقه في رعب.. وأضاف:

- وأخاف الأضواء الخافتة وأفضل عليها الظلام الدامس..!

قلت أنا وقد تذكرت كوخ (ميدوسا):

- أوافقك تمامًا..
ثم سألت (شكري) عما يثير هلعه.. فقال على الفور:
- الكابوس الشهير.. أن تستعين بشخص على خطر يتهددك فيتضح لك أنه جزء من الخطر..، كلنا نعرف قصصًا كهذه.. الحمال الذي يسير في غابة يعيش بها رجال لا وجوه لهم.. يجد رجلًا يدير له ظهره فيهرع مستنجدًا به كي يحميه في أثناء اجتياز الغابة، عندئذ يلتفت له الرجل في بطء فيكتشف الحمال أن الرجل بلا وجه..!..
صاحت النسوة الثلاث أن يا للرعب.. وطلبن من (شكري) أن يكف عن هذه القصص الشنيعة.. فضحك في تلذذ مرددًا:

- إنها (تيمة) قديمة جدًا في الأساطير الشعبية وقصص الرعب..
قلت وقد بدأ الموضوع يروق لي:
- ثمة (تيمة) أخرى تثير هلعي دائمًا.. فكرة (لم أكن أعلم وقتها كذا....) وهي تتكرر في كل شيء.. موثق العقود (هاركر) يبيت ليلته في قصر (دراكيولا) غير عالم بما يعنيه الإسم.. لكن القارئ يعلم!، كلنا نعرف أن جدة (ذات الرداء الأحمر) هي ذئب متنكر لكنها لا تعرف...، هي (تيمة) أدبية لكنها تثير رعبي دائمًا...
تنهدت (سهام) في إنهاك.. ودمدمت:
- تبًا لها من أمسية!!.. من الذي بدأ كل هذا؟

- (هويدا) أختك.. حين تحدثت عن البرد والظلام والأمطار..
- وأنت سعيد بكل هذا؟
- ولم لا..؟!
- لأن...
وتوتر وجهها واتسعت عيناها ونظرت لخارج الحجرة.. ثم همست:
- صه!.. أكاد أقسم أن هناك من يتحرك في الردهة..!.. بل أنا واثقة من ذلك..
قف شعر رؤوسنا جميعًا وتصلبت أطرافنا على المقاعد.. لحظات ثم دوت ضحكة (سهام) القاسية..
- كنت أداعبكم ايها السادة!.. أداعبكم... من الواضح تمامًا انكم مستمتعون بهذه الأحاديث.. لأنكم شجعان.. شجعان حقًا..!

قال (عادل) في حنق:

- (سهام).. لقد توترت أعصابنا بما يكفي فلا تزيدي الأمر سوءًا...

نهض (شكري) في عصبية.. وهتف:

- لقد أوجدنا الرعب.. لم يكن له وجود لكننا خلقناه وصنعنا له كيانًا ماديًا ملموسًا..، لقد صار هو الضيف التاسع في هذا البيت.. بل إنه صار أكثر الحاضرين تأثيرًا وفعالية..، ألا تدركون روعة هذا..؟

تعالت سبعة أصوات حانقة أن نعم..

هز رأسه في ضيق.. ونظر لساعته.. كانت تقترب من منتصف الليل والعاصفة مستمرة..، رفع رأسه متسائلًا:

- هل ننصرف الآن محاولين العودة لبيوتنا بأية طريقة؟

قال د. (سامي) في أريحية لا أثر للافتعال فيها:
- مستحيل.. ستبقون هنا، وستنام السيدتان مع زوجتي.. أما الرجال فينامون هنا معي.. لا مشكلة هنالك..
- لا أحد يرغب في النوم..
ثم لوح (شكري) بيده في الهواء وهتف:
- لنواصل لعبتنا الرهيبة.. فليحك كل منا قصة مرت به.. قصة تتعلق بالفزع الغامض الذي تحدثنا عنه الآن..
- (ديكاميرون)!
قلتها في سخرية، وبالطبع لم يفهم أحد عما أتحدث سواه ود. (سامي) من ثم قال الأول مؤمنًا على كلامي:

- هو كذلك.. مثل الـ (ديكاميرون)[2].. لقد تخيل الإيطالي (بوكاتشيو) أن الطاعون اجتاح بلدًا، وأن رجالًا ونساء اختبئوا عشرة أيام حتى يرحل الوباء.. وشرع كل منهم يحكي قصة لتزجية ساعات الفراغ، على أن قصصهم كانت تدور - غالبًا - حول المجون والخيانات الزوجية.. أما (الديكاميرون) المصري فسيدور حول الخوف..

- يا لها من فكرة!..

- فلنبدأ.. وفي نهاية الأمسية سنختار أفضل قصة ونمنحها مكافأة..

وضاقت عيناه وعبث بلحيته وهو يعود لمقعده مستطردًا:

-.. مكافأة خاصة جدًا..

-.. وما هي؟..
نظر لي في شرود...
ثم ابتسم...

* * *

- ١ -

قالت (سهام) وهي تخفض صوت المذياع:

القصة الأولى



تحكيها : (سهام)

- إن الغرام القديم بين الأنثى والمرآة معروف منذ الأزل..، ولئن كانت النساء يعرفن جيدًا كيف يرين الشيء دون أن ينظرن إليه، فإن الشيء الوحيد الذي تنظر له المرأة بإمعان لهو المرآة...

❋ ❋ ❋

أنتم تعرفون - وأقولها بكل شجاعة - إنني و(عادل) زوجي محدودا الدخل، لكن المرأة الذكية لا تكف لحظة عن البحث عن متنفس لتجميل شقتها..، وقد وفقت إلى العثور على قطع أثاث في منتهى الأناقة بقروش معدودة.. عندئذ كانت بعض لمسات التجديد كفيلة بتحويلها إلى تحفة حقيقية..

وفي ذات يوم كنت أتسوق حين وجدت رجلًا يبيع بعض الأشياء التي تحمل طراز العظمة الغابرة..، مقاعد صالون مذهبة تكومت كيفما اتفق فوق عربة يد.. ومرآة مزخرفة الإطار ملقاه بإهمال ما بين المقاعد، لكن المدهش بالنسبة الى هو أن زجاجها كان سليمًا وصقيلًا وبحال ممتازة..

ولما سألت الرجل عن ثمنها وأنا أتحسس جنيهاتي الخمس التي أطبقت عليها كفًا ملوثة بالعرق، كان رده أنه يريد خمسة جنيهات!..

كان الإغراء قويًا.. وأنا لست حمقاء.. هذه المرأة تفوق هذا السعر بمراحل، ولم تستغرق الصفقة طويلًا.. أربع جنيهات

ونصف ثمن المرأة وربع جنيه كي يحملها صبي يعمل معه إلى داري..

وعدت للدار حاملة كنزي الصغير متسائلة في قلق عن رد فعل (عادل) إذ يرى ما جلبته..، إن الرجال لا يفهمون هذه الأشياء أبدًا.. وسيكون من الصعب أن يفهم كيف اشتريت مرآة بالمبلغ الذي كنا سنأكل به طيلة الشهر[3]..

كنا لم ننجب بعد.. ؛ لهذا لم أخش شيئًا حين وضعت المرأة في صالة البيت وشرعت أتأملها..

كانت فاخرة بلا شك، وإطارها المذهب المليء بالزخارف يعكس عظمة غابرة لو تناسينا أكوام الغبار المحشورة بين هذه الزخارف.. وتساقط القشرة الذهبية في عدة

مواضع، أما المرآة ذاتها فكانت سليمة تمامًا بلا خدوش ولا عيوب في الطلاء..

لابد أن هذه المرأة كانت تزين بها في قصر أمير أو أحد بكوات ما قبل الثورة، لكنني لم أفهم قط كيف وصلت ليد هذا البائع.. ولماذا باعها بهذا الثمن البخس..؟

أحضرت خرقة وزجاجة كحول وبعض الماء والصابون وصنعت مزيجًا لا بأس به لتنظيف الإطار المتسخ..، وبدأت أعبث هنا وهناك بأطراف أناملي.. خطوة بخطوة بدأ الماء يستحيل للون الأسود لكن حال المرأة لم يتبدل كثيرًا..

وهنا اصطدمت أناملي بشيء ما..

كان ثمة شيء محشور بدقة في أحد التجاويف على جدار المرآة الخارجي،

وحاولت إخراجه لكني فشلت..، تناولت مفكًا وشرعت أعالج هذا الشيء حتى تمكنت من انتزاعه وبدأت أتفحصه..

كان ذلك الشيء وريقة صغيرة برمها أحدهم بشدة حول نفسها حتى غدت أقرب إلى المسمار، وهكذا استطاع أن يدسها في الثقب..

ببطء وحذر فتحت الوريقة لكنها كانت مهترئة تمامًا وتمزقت بين أناملي قبل أن أتمكن من فتح جزء صغير منها..، من ثم كورتها ورميت بها أرضًا وعدت أواصل عملي..

كنت أرى انعكاس وجهي في المرآة بزاوية عيني، وأعتقد أنه كان واقعًا في مجال ما يسميه الأطباء بـ (البقعة العمياء)

التي ترى فيها الشيء لكنك لا تميزه.. فقط أشعر ببقعة وردية هي وجهي حولها هالة سوداء هي شعري..

ولكن...

لا أدري.. للحظة خيل لي أن انعكاس وجهي في المرآة يلتفت للناحية الأخرى**!!**.. أنا لست مخبولة.. هذا هو ما شعرت به... رفعت وجهي نحو المرآة سريعًا فلم أر سوي وجهي المرتعب يرمقني في حيرة..

أخرجت لساني فأخرج وجهي لسانه، قطبت فقطب وجهي، لوحت بيدي اليمني فلوح الانعكاس بيده اليسرى..

لا مشكلة هنالك..

هي مجرد مرآة بريئة أخرى...

لكن ما سر هذا الإحساس العصبي الذي ينتابني؟

* * *

حين جاء (عادل) بعد انتهاء عمله كان واضحًا جدًا ومباشرًا في رأيه الذي أبداه فيما يتعلق بهذه المرأة..، وبالطبع قال إنني مدللة وعابثة ولا أتحمل المسئولية وأنه - بالتأكيد - كان يتمنى لو كان متزوجًا من واحدة أخرى لا تبدد ميزانية البيت في شراء المرايا..

- لكنها مرآة جميلة..

- وكذلك حمامات السباحة.. كلها جميلة.. لكننا لا نملك حمام سباحة في الصالون!

وبعصبية فك ربطة عنقه ودلف إلى الحمام تاركًا إياي واقفة في الصالة لا أدري ما أفعل ولا ما أقول..، وهنا استدرت - عفوًا - تجاه المرآة فلمحت شيئًا عجيبًا..

كأن صورتي في المرأة كانت ترمق ظهري بحدة طيلة الوقت، وحين التفت لها نجحت - بالكاد - في استعادة مظهرها البريء..!، وعادت كما كانت مجرد انعكاس لي..

اقتربت منها وشرعت أتأملها..

بالطبع كان معنى هذا أنها تتأملني هي الأخرى..

كانت - ككل صور المرايا - تشبهني تمامًا لكني (ولا أدري إن كنت واهمة أم

لا) تبينت نوعًا من القسوة في شفتيها الرفيعتين.. بل إن ابتسامة ساخرة تلاعبت على ثغرها!..، أسمعكم تضحكون.. تقولون إنني رأيت انعكاسًا لهواجسي وحالتي النفسية وأن من كان يضحك بقسوة هو أنا وليس الانعكاس..، لكني أقسم لكم إنني لم أكن أهذي.. أنا واثقة أن هذه الصورة كانت تختلف عني اختلافًا طفيفًا..

في هذه اللحظة دوى صوت باب الحمام ينفتح.. وبرز (عادل) ممسكًا بمنشفة واتجه نحو غرفة النوم.. وسألني دون اكتراث:

- ماذا حدث يا (هانم)؟.. هل جننت؟..

كلا.. لن أصارحه بمخاوفي.. أولًا ؛ لأن الارتباط بين الجنون وكثرة النظر في المرايا قوي في أذهاننا، ثانيًا: لأنه سيعتبر

أية ملاحظة أقولها على المرآة اعترافًا مني بأنني خدعت وأضعت ماله هباء..، وثالثًا: لأن الأمر كله أسخف من أن يحكي...

وهكذا مضى اليوم..

لكنني لم أنسى في كل لحظة أمر فيها أمام المرأة أن أفاجئها بنظرة صاعقة علني أفاجئ (الأخرى) وهي غير مستعدة لتقليدي...

لكن ظني خاب في كل مرة.. أخيرًا انتصف الليل.. نام (عادل) كلوح الخشب في حين كان النوم يجافيني..

كان الطقس حارًا ورطبًا.. وقطرات العرق اللزج تحتشد على جبيني وفوق شفتي العليا، وكان الظمأ يحرقني..

نهضت لاهثة إلى الصالة لأرشف جرعة ماء من الثلاجة الصغيرة..

وفي الضوء الخافت المنبعث من جوف الثلاجة اختلست نظرة إلى المرآة التي كنت قد نسيت كل شيء عنها..

إن هذا غريب..

هذا المشهد لا يمت بصلة لصالة داري...

اقتربت في حذر من المرآة.. وكما توقعت لم أر أي انعكاس لي فيها.. لقد رحلت (الأخرى)..

أما ما رأيت فكان صورة كلاسيكية غريبة وضبابية.. كأنها امرأة.. نعم.. هي كذلك.. امرأة جميلة جدًا تتزين وهي تنظر لي من الجانب الأخر للمرأة..، وكانت ترتدي ثيابًا غريبة واسعة الأكمام مليئة

بالدانتيللا.. وكانت الخلفية مزدانة - هي الأخرى - بستائر يبدو أنها ثمينة..
لم تكن الصورة واضحة لأن إضاءتها كانت تعتمد على ضوء الثلاجة الخافت، ولابد أنني لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه الصورة التي لا أدري عنها أي شيء..
ثم.. بدأت أرى انعكاس صورتي من جديد..
ترى ما معنى هذا.. وما هو أصلًا؟..
عدت إلى الفراش مشوشة الذهن حتى أنني نسيت أن أشرب..، وفي الظلام حاولت استرجاع المشهد مرارًا..
حتى غلبني النعاس...

* * *

صارت الأيام التالية جحيمًا..
فلم تكن عيناي تبرحان المرآة قط.. وطيلة الوقت يعاودني ذلك الشعور المزعج أن هذه المرأة البادية ليست انعكاسًا لي، بل هي مخلوقة أخرى تعيش هناك وتمثل أنها انعكاسي.
كانت نظرتها الثابتة الساخرة تثير هلعي..
لكنني لم أجرؤ قط على أن أصارح (عادل) بهواجسي لأن الرجال يعتبرون



أننى لبثت بعض الوقت ثابتة كالطود شاخصة البصر إلى هذه

الصورة التى لا أدرى عنها أى شىء ..

النساء هستيريات حتى يثبت العكس..
بل إنني جرؤت ذات مرة أن ألمح له أن:
- تلك الصورة التي في المرآة تفزعني..
ابتسم في سخرية بركن فمه.. وقال:
- إن هذا ليس جديدًا...!
ترى ماذا كان يعني بهذا التعليق؟!..
بعد ستة أيام تكرر ما حدث في تلك الليلة، وكان ذلك في الصباح بعد أن انصرف (عادل).. مررت أمام المرآة شاردة الذهن فشعرت ذلك الشعور الغريب بأن هناك من يراقبني، نظرت للمرآة نظرة صاعقة فوجدت شيئًا يختلف..
في المرآة كان هناك رجل.. رجل يرتدي بذلة وردية ويضع على رأسه طربوشًا ويشذب شاربه الرفيع الجميل بمشط

صغير.. كان ينظر لي في ثبات.. ثم بدأ يعدل وضع الطربوش منتقيًا الوضع الأمثل...، ثم أخرج سيجارة رفيعة من علبة تبغ معدنية أشعلها وشرع يبتسم بخبث راضيًا عن نفسه..!

بدأت الصورة تذوب.. بينما هلعي يتشكل ويصحو..

وحين عاد انعكاسي القديم إلى السطح الزجاجي مددت يدًا متشككة باردة كالثلج إلى المرأة.. وفي توجس أدرتها حول محورها الطولي..، إن هذه المرآة مسحورة..

أقسم على ذلك.. كأنها نافذة تطل على كون آخر لا أعرف عنه شيئًا.. ثقب في حائط يفصلنا عن عالم مجهول..

إن هذه الرؤى ليست انعكاسًا لحالتي النفسية، وليست وهمًا.. لا يمكن أن يكون هناك وهم بهذه الدقة.. الدانتيللا في ثياب المرأة وستائر غرفتها وثياب الرجل المتحذلقة.. لم أسمع عن وهم تملؤه الدانتيللا من قبل..!

والآن أمامي ثلاث خيارات..

إما أن أصارح (عادل) لعل عقلين هما أفضل من عقل واحد - كما يقولون - مع استعدادي التام لقبول الاتهام بالعته..

أو أن أتخلص من هذه المرآة بالبيع أو التحطيم أو (التسريب) لكنني لست - حتمًا - ممن يفقدون خمس جنيهات بهذه السهولة..

وإما أن أتجاهل الأمر برمته متظاهرة أن المرايا المسحورة ليست من الأشياء المرعبة..!
إن الخيار الأخير يناسبني لأسباب لا تخفى على أحد..
وكذا مرت أيام عدة والمرآة في موضعها..
إلى أن جاء ذلك اليوم...

❋ ❋ ❋

قرع أحدهم جرس الباب فذهبت لأفتحه.. وكانت (هويدا) شقيقتي ومعها (هاني) خطيـ... أعني أحد الأصدقاء4..، وقد أشاعا جوًا محببًا من المرح في الدار.. وكان هناك الكثير من الثرثرة والضحك..

خاصة حين انفجرت زجاجة المياه الغازية في وجه (هاني) وأنا أفتحها..
ثم إن هذين الوديعين العزيزين فارقاني بعد أن أبديا إعجابهما الشديد بالمرآة، ذلك الإعجاب الذي اعتدته من كل ضيوفي وكنت أتقبله في رضا تام.. وأرجوهم أن يرددوه على مسمع من زوجي..
كان (هاني) شابًا وسيمًا هادئًا كالنهر لا يكف عن الابتسام.. وكان يتقبل كلماتي القاسية ومداعباتي اللاذعة في رقة ملائكية حتى أنني كنت أقول لـ (هويدا) إنها مخطو.. أ.. صديقة لجثة..!..
وكانت هي تضحك أولًا رغمًا عنها ثم تقرر أن تغضب.. وتدمع عيناها وتوصي مرارًا ألا أقول ذلك عنه..

ما علينا..
المهم أنهما انصرفا.. فنهضت أعيد للشقة رواءها وأنظف مطفأة السجائر وأعيد زجاجتي المياه الغازية للمطبخ و...
مرة أخرى تتكلم المرآة..
هذه المرة كان المشهد مألوفًا..
نفس منظر الصالة الذي تعكسه دائمًا..، لكن كان هناك شيء غير عادي..، فبدلًا من أن أرى نفسي حيث وقفت أمامها.. وجدت انعكاس (هاني) و(هويدا) واضحين تمامًا.. وكانا يضحكان.. وفي يدي كانت زجاجة المياه الغازية تبصق رغوتها...
ذات المشهد الذي حدث منذ عشر دقائق.
لقد فهمت ما يحدث هنا..

هذه المرآة تختزن الصور التي تحدث في مجالها لبعض الوقت ثم تعيد إخراجها في لحظات عشوائية غير متوقعة..

كأنها كاميرا تصوير تدون الصور على فيلم ثم تعيد عرض ذلك الفيلم في أوقات بعينها..

وهذه الأحداث قد تعود إلى الثلاثينات. كما تدلني ثياب المرأة والرجل - أو تعود إلى عشر دقائق مضت كما حدث الآن..

ولكن ما سر هذه المرآة الخبيثة التي تتظاهر إنها انعكاس صورتي؟...

لن أعرف أبدًا..

لكني - على كل حال - أملك أعجب شيء رأيته في حياتي..، ولكم من مشاهد عرفت ولكم من أسرار فهم هذه المرآة!.. كم من

جيل مر أمامها وتجمل أمامها ثم ولى بعيدًا..

إن هذه المرآة خطيرة.. لكنها فاتنة.. فاتنة إلى حد لا يصدق..

* * *

إن المرآة تراقبني..!

لهذا أخذت واجب الحذر ولم أبد أمامها إلا في أحسن صورة.. فمن أدراني أن جيلًا قادمًا لن يجلس أمام زجاجها يطالع أسراري في شغف؟!..

يجب أن أكون صريحة.. لقد كان الفضول أقوى مني.. كنت أجلس الساعات أمامها منتظرة سرًا جديدًا من أسرار ملاكها السابقين وكلي نهم.. كأنها دائرة

تلفزيونية مغلقة تتجسس على هؤلاء الناس..، إن هذا ليس أخلاقيًا تمامًا لكن التجسس على قوم عاشوا قبلي بعشرات الأعوام ولا أدري من هم ؛ هذا التجسس لم يبد مشينًا إلى هذا الحد..

رأيت مئات الصور لتلك الغرفة ذات الستائر التي عرفت أنها وردية..

شاهدت عشرات المرات تلك المرأة تثبت قرطًا أو تطلي شفتيها.. لمحت أكثر من مرة ذلك الرجل - والواضح أنه كان زوجها - يمشط شعيرات شاربه..

دعك طبعًا من المرات العديدة التي رأيت فيها نفسي أفعل شيئًا أو آخر.. أو أرمق المرآة في توجس..

والمرات العديدة التي رأيت فيها (عادل) يروح هنا وهناك مرتديًا منامته الشهيرة ذات الخطوط الزرقاء الطولية..

لقد كان كل هذا ممتعًا وأثار شغفي..، لم يكن جهاز (التلفزيون) منتشرًا وقتها وبالتأكيد لم يكن لدينا واحد..، ولقد جعلتني هذه المرآة أفهم ما هو (التلفزيون) قبل أن اراه..

***

إلا أن (عادل) بدأ يرتاب في أمري..

وسألني أكثر من مرة عما إذا كنت أحاول تعلم التنويم المغناطيسي الذاتي، ثم صارحني أنه يخشى على حالتي العقلية

كثيرًا من حملقتي المستمرة في هذا السطح الصقيل..
إلا أنني كنت مبهورة تمامًا حتى كدت أجتاز عالم المرأة كما يحدث في القصص الخيالية داخلة إلى ذلك العالم المعكوس خلفها، حيث اليمين يسار والعكس.. وحيث يتقدم المرء للأمام متى سار إلى الخلف..!.. لم أفعل ذلك بل كدت..
وفي ذات مساء كنت جالسة وحدي أمامها حين رأيت مشهدًا عجيبًا..
رأيت (هويدا) و(وهاني) ورأيت نفسي..
وكانت الوجوه ممتقعة كالحة والحركات عصبية..، أنا واثقة تمامًا أن هذا المشهد لم يحدث أمام المرآة قط.. فضلا عن أنني لا

أملك ثوبًا أزرق ياقته بيضاء، و(هويدا) لا تملك معطفًا أسود...

كان (هاني) يتحدث بشراسة غير عادية ويلوح بقبضته.. بينما (هويدا) تدفن رأسها بين كفيها وتبكي ثم ترفع رأسها محاولة إقناعه بشيء ما.. أما أنا فكنت ألعب دور المصلح ما بين الطرفين.. ثم...

بمنتهى القسوة رفع (هاني) كفه وصفعها، فهببت - كما هو متوقع - صارخة محاولة إيقافه مرددة أشياء لابد أنها من قبيل (هل وصلت الأمور إلى هذا الحد؟.. أتضرب أختي أمامي أيها السافل الوقح؟!!).. نعم.. لا بد أنني كنت أقول ذلك.. إلا أنه دفعني دفعًا بعيدًا عنه.. وصاح مرددًا شيئًا ما ثم انصرف تاركًا المرأتين الباكيتين..

وبدأت الصورة تذوب..
وهنا تقلصت أحشائي..
ما معنى هذا الذي رأيته؟
إن هذا المشهد لم يحدث قط.. فهل هذه المرأة تتنبأ؟.. إن كل شيء يؤكد ذلك.. لكن كيف؟.. وكيف يتبدل الملاك الرقيق (هاني) إلى شيطان يضرب النساء.. ومتى سيحدث ذلك؟..
أنا واثقة أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به.. لكن ما هذا الذي رأيت؟
هل هو كابوس لا أكثر سببه توتري وخشيتي على مستقبل أختي؟ لن أدري أبدًا..
لكن فكرة لا بأس بها خطرت لي..

سأعلق تقويمًا على الجدار المقابل للمرآة لتنعكس صورته على زجاجها..

وهكذا - لو شاهدت مرة أخرى مشهدًا مستقبليًا - أمكنني أن أعرف تاريخه التقريبي بمجرد نظرة إلى التقويم المعلق خلف ذلك المشهد.. حتى ولو كان الرقم مقلوبًا لكنه مقروء..

أحضرت مسمارًا ومطرقة وصعدت على مقعد لأعلق التقويم..، وهنا تذكرت شيئًا مرعبًا..

لقد كان شيء يشبه التقويم معلقًا بالفعل على الحائط فوق رأس (هويدا) في المشهد الذي رأيته منذ دقائق.. لكني لم أعبأ به كثيرًا..!

أما الأغرب فحدث عندما عاد (عادل) من عمله..
لقد نال الترقية - أخيرًا - إلى رتبة (نقيب).. وكان سعيدًا كالمهر الصغير.
وقد اشترى لي هدية لأني - كما قال - زوجته الصابرة الباسلة..
- لم أكن أعرف مقاييسك لكن البائعة كانت تماثلك حجمًا وطولًا.. لهذا طلبت منها أن تنتقى ثوبًا يناسبها هي..
نظرت له في جزع.. وبشفتين مرتجفتين سألته:
- (عادل).. هل هو ثوب أزرق ذو ياقة بيضاء؟..
تبدلت نظرته الودود إلى دهشة لا حد لها.. وسألني:

-.. وكيف عرفت؟!

* * *

- ٢ -

عند هذا الجزء من القصة كان (شكري) قد وصل لقمة الاستثارة وشرع يشعل سيجارة تلو الأخرى، في حين تصلبت (هويدا) في مقعدها وقد بدا واضحًا أنها تسمع القصة للمرة الأولى برغم الدور الذي لعبته فيها، ولم يفتني أن ألاحظ - في

خبث - النظرة الجانبية التي اختلستها مدام (ثريا) للمرآة الكبيرة المعلقة في القاعة..

قال (شكري) وهو يعابث لحيته وقد اتسعت عيناه:

- إن هذه القصة تلعب على وترين.. الخوف الكامن في الإنسان من المرايا.. ثم الخوف من الأشخاص الودودين أكثر من اللازم...

قالت (سهام) في ضجر:

- لم أفلسف الأمر مثلك وقتها.. كنت متوجسة فحسب..

قال (شكري) وقد بدأ (يتألق) حقًا:

- لكنك لمست معنى الرعب الحق..

- أستاذ (شكري)..

قلتها في كياسة.. فنظر لي متسائلًا.. استطردت:

- كلنا نعرف أنك إنسان ذكي ورائع.. فهلا تركتها تكمل القصة؟!

نظر لي هنيهة باحثا عن رد يخرسني.. ثم آثر السلامة وأشار لها في استسلام كي تكمل كلامها..

❋ ❋ ❋

قالت (سهام):

صار الأمر شبه مؤكد بالنسبة لي خاصة حين علمت أن (هويدا) ابتاعت معطفًا أسود بعد يومين من هذا الحادث.. أي أن الأمر صار ممهدًا تمامًا للمشاجرة التي سيكشف فيها (هاني) عن أنياب شراسته..

هل أنذرها؟.. لا أدري.. أنا متأكدة من استحالة التنبؤ.. لكن كيف تحتشد كل هذه المصادفات؟.. إن رأسي يكاد ينفجر حقًا..

وساعات أطول أقضيها أمام تلك المرآة اللعينة..

ذات مرة شاهدت تلك المرأة جالسة أمام المرآة.. وكانت تتزين كعادتها على الجانب الآخر من الجدار الزجاجي، ثم رأيت الرجل يدخل ويقف خلفها وتدور بينهما محادثة شبه غاضبة، لم تدر رأسها نحوه لكنى فهمت أنها تحدث انعكاسه في المرآة متعمدة تجاهله.. كان الرجل يلوح بخطاب معين ويزمجر.. وبدت هي مشدوهة لكنها تحاول التظاهر أنها أقوى..

ثم.. تصلبت عيناها.. ورأيت الرجل يمد يده في جيب بدلته ويخرج مسدسًا صغيرًا جميل الشكل ويصوبه نحو رأسها... و....

ذابت الصورة وعدت أرى انعكاس وجهي.. كان وجهي - في المرآة - يضحك بخبث.. ثم.. غمزة ماكرة بالعين اليسرى جعلتني أقفز مترًا إلى الوراء..!.. لم أكن أنا صاحبة الغمزة.. وإلا فأنا على حافة الجنون ولا أدرى شيئًا عن نفسي..

ما معنى هذا الذي رأيت؟...

لا جدال هنالك..

لقد رأيت شروعًا في جريمة قتل حدث في مكان ما من أربعينات هذا القرن..

ولا يمكن أن تكون هذه الصورة وليدة عقلي الباطن...

ولكن من قتل من؟..

* * *

بعد أيام فوجئت بمشهد أكثر غرابة..

ذرات رمل وأحجار تملأ المشهد وتحيله ظلامًا تامًا.. لا شيء على الإطلاق يمكن تبينه أو استيضاحه.. فما معنى هذا؟..

ثم عادت الصورة تعكس وجهي كالعادة..

وهنا دق جرس الباب..

لم يكن (عادل) في الدار بسبب استغراقه في إحدى المأموريات.. لذا ذهبت وفتحت الباب وكان القادمان هما (هويدا) و(هاني)..، (هاني) الوديع الرقيق الذي يتدفق حياء وبرغم هذا لم أستطع أن أستريح له.. لقد سممت هذه المرأة نظرتي

له إلى الأبد، لقد تحدث الأستاذ (شكري) ود. (رفعت) عن الأشخاص الودودين أكثر من اللازم..، وهذا الخوف موجود في قصص كثيرة.. إن الساحرة تدعو (هانز) و(جريتل) إلى تناول الفطائر لأنها تريد التهامهما.. ساحر (علاء الدين) يتظاهر بأنه أصدق أصدقاء أبيه..

علمونا هذا ونحن بعد أطفال، لهذا كنت على استعداد تام لأن أمقت هذا الفتى..

الشيء الأسوأ هنا هو أن (هويدا) كانت ترتدي معطفها الاسود**!!**..

جلست (هويدا) تشكو لي مضايقات البحث عن شقة.. وبدأت تلوم (هاني) على تراخيه..، من ثم بدأ يحتد ويدافع عن نفسه بعصبية..

إلى هنا - قلت لنفسي - ليس الموقف موقف صفعات.. ولن يزيد عن مشاجرة عادية.. لن يزيد عن ذلك أبدًا..

وهنا قالت (هويدا) في حنق:

- دعينا من هذا البائس.. وحدثينا عن نفسك..

- أنا بائس؟!

كان الغضب يلتمع في عينيه.. يا لك من معتوهة يا (هويدا)..، إنها لا تعيره اهتمامًا.. بل وتقول لي محاولة تغيير الموضوع:

- أريد أن أرى الثوب الجديد الذي ابتاعه لك (عادل).

- الـ... الثوب الأزرق..؟!

- نعم.. نعم.. ذو الياقة البيضاء.. ارتديه ودعيني أراه عليك!!

- مسـ.. مستحيل!!

كنت أدافع عن سعادة أختي وسعادتي.. لن يجرؤ مخلوق على إرغامي على ارتداء هذا الثوب..، ولولا أنه هدية من (عادل) لحرقته..، إنها تلح - الحمقاء - لأنها لا تعلم شيئًا.. ولا تعلم أن (هاني) سيصفعها أمامي بعد دقائق..

وهنا لاحظت أن صورة المرآة تتبدل.. لقد صرت مدربة تمامًا على معرفة هذه اللحظات.. لم يلاحظا قط أنني أنظر إلى المرآة لأنني لم أكف عن الكلام وأنا أرمقها بطرف عيني:

-.. إنه مغسول.. ثم إنه...

رأيت صورة (عادل) يصيح في عصبية.. وأنا أردد شيئًا ما في هلع وأحاول منعه..، ثم.. التقويم يشير إلى أن هذا سيحدث بعد أسبوع..

-.. ضيق جدًا ولا يناسبني.. و...

(عادل) - في المرآة - يمد يده لجيبه ويخرج مسدسه ويصوبه نحوي..

-.. ولونه ليس...

وفقدت سيطرتي على أعصابي...

انفجرت أبكي في حرقة.. حتى (عادل) أيضًا لن أثق فيه بعد اليوم.. وقد قالت المرآة أنه سيحاول قتلي..، (هويدا) و(هاني) يتساءلان في جزع عما دهاني ويطيبان خاطري، أن المرأة التي تبكي

حين تتحدث عن ثوب جديد هي - دون شك - مصابة بالعته..
حين انصرفا في النهاية كنت منهارة تمامًا.. وآليت أن أخبر (عادل) بكل شيء..

❋ ❋ ❋

ما أرقك يا (عادل)!!
ربما تتقلب بنا الأيام وتولد خلافات لم نتوقعها..
لكني سأظل مدينة لك أبدًا بالبساطة والتلقائية وقابلية التصديق التي أبديتها نحو كلماتي، لم يتهمك أحد قط بأنك مرهف الحس ولا أنك متفهم...
لكنك - من أجلي فقط - ارتكبت هذه الخطيئة: إظهار الحنان...

نهض (عادل) إلى المرآة وتفحصها في شك، ثم أشعل سيجارة وقال:

- أنت حمقاء يا (سهام).. إذ أنني بالتأكيد أتوق إلى خنقك لكني لن أطلق عليك الرصاص لأي سبب..!

ثم قلب إطار المرآة وتأمله:

- في البدء يجب أن نعرف ما إذا كانت هذه الرؤيا خاصة بك أم أنني قادر أيضًا على رؤيتها..، ثم نحاول معرفة مصدر هذه المرآة..

قلت في حذر محاولة ألا أبدو حمقاء:

- (عادل).. لماذا لم تتهمني بالخرف.. وبأن بقائي وحيدة في الدار قد أنهك أعصابي..؟..

- لأن هذا غير صحيح..!

وهكذا.. مضت الساعات و(عادل) جالس في مقعده يتأمل المرأة حتى أنني بدأت أفهم شكه في حالتي العقلية حين كنت مكانه..

ساعة تلو الساعة يجلس في مقعده يدخن ويصغي للراديو..

ولا بد أنها كانت الواحدة صباحًا حين سمعت صوته الملهوف يناديني، فهرعت حافية القدمين لأرى ما هنالك.. إلا انني وجدت انعكاسًا بريئًا لوجهينا على الزجاج، وقال (عادل) في ارتباك.. وهو يخشى ألا أصدقه:

- لقد حدث... رأيت.. رأيت..

- نعم.. ماذا رأيت؟

- رأيت فتاة شابة تنظر لي في ذهول وقد بدا أن الخوف يقتلها..

- وكيف كان طراز ثيابها؟..

هرش رأسه في حيرة:

- لا أدري.. مثل أفلام الخمسينات.. تقريبًا..

- إذن هي مالكة المرآة بعد الرجل والمرأة..

نظر لي (عادل) بعينين زائغتين.. ثم قرر أن يواصل المشاهدة وأمرني أن أنام لأن سهرته ستمتد طويلًا..

* * *

حين صحوت في الصباح وجدته ما زال جالسًا..

كانت مطفأة السجائر طافحة بالأعقاب، وفي عينيه لمحت نظرة غريبة..
نظرة شك لم أرها من قبل..
- (عادل).. هل ثمة شيء جديد؟
نظر لي في شرود.. ثم هز رأسه أن لا..، ونهض إلى غرفته ليرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب للعمل طالبًا مني أن أعد له فنجان قهوة..
- ولن تتناول إفطارًا؟..
- لا...!
قالها في عصبية لا مبرر لها..، وانصرف تاركًا إياي غارقة في أفكار سوداء عن سر تبدل أطواره..، إن الأمر يتعلق - بالتأكيد - بشيء رآه في المرآة في تلك الليلة.. فما هو؟

أستطيع أن أجبره على الكلام فيما بعد.. أما الآن فإن الدار متسخة كحظيرة جياد.. وعلي أن أنظف كل هذا..

وهنا - أعترف - أقول أن تنظيف ما تحت السجاجيد ليس هواية محببة لدى، ولربما فعلت ذلك كل شهرين مع الماء.. لكن الوقت قد حان لذلك اليوم..

بدأت بقلب جوانب السجادة كاشفة عما تحتها حين وجدت الوريقة.. الوريقة القديمة التي دسها أحدهم في إطار المرآة وعجزت أنا عن فتحها.. ترى ما الموجود فيها؟.. إن الأمر لم يثر اهتمامي يوم ابتعت المرآة، أما اليوم فالفضول يقتلني..، أحضرت قطعتين من القطن وشرعت أحاول برفق فتح الورقة التي اهترأت تمامًا

من محاولتي الخرقاء الأولى..، ها هو ذا شيء ما يتبدى لعيني.. كتابة بحروف لاتينية.. بلغة لا أعرفها (أنا لا أجيد سوي بعض الإنجليزية وأعرف الفرنسية من منظرها فقط).. لهذا فردت الورقة ودسستها تحت زجاج (البوفيه) حتى يحضر (عادل)...

وهنا دوي صوت الباب ينفتح..

دخل (عادل) في عصبية..، وهز راسه محييًا.. وتساءل:

- وحدك؟.. حسن.. إن معي بعض الزملاء.. أعدي لنا ثلاثة أكواب من الشاي.. شاي ثقيل..

دخلت المطبخ لأشعل الموقد وأضع البراد حين سمعت صوت قرعات متتالية آتيًا من

الصالة، تسللت برأسي لأرى ما هنالك، فوجدت رجلا ضخم الجثة - واضح أنه مخبر - يهوي فوق المرآة بمطرقة كبيرة محاولًا تهشيمها.. إن أية مرآة تحترم نفسها تتهشم بعد ضربة واحدة أما هذه اللعينة فتحملت عشرات منها دون جدوى..

تبادل (عادل) نظرة ذات مغزى مع رجل أشيب الشعر يقف بجواره.. ثم أخرج مسدسه وركب شيئًا طويلًا على فوهته (فهمت أن هذا كاتم صوت كي لا يفزع



فوجدت رجلاً ضخم الجثة ــ واضح أنه مخبر ــ يهوى فوق المرآة
بمطرقة كبيرة محاولاً تهشيمها ..

الجيران) وصوبه نحو المرآة.. دوت عدة طلقات مكتومة لكن شيئًا لم يحدث..!.. ارتدت الطلقات متدحرجة على الأرض..

- ما رأيك يا د. (سامي)؟..

سأل الرجل الأشيب.. فهز هذا رأسه في حيرة..، ثم قال بصوت رزين:

- أقترح دفنها في هوة سحيقة بالجبل..

وهنا صاح المخبر في هلع مشيرًا إلى المرآة:

- إنها تضحك.. تضحك!

المرآة تشير لنا وتضحك في سخرية!.. إن فشلنا في تدميرها قد راق لها إلى أقصى حد..، حتى أنها لم تعد تخفي ذلك..

شرع المخبر يحوقل ويبسمل.. في حين ظل (عادل) يرمق المرآة في صرامة..

كانت لحيته نامية وإرهاق ليلة أمس مرتسمًا على تجاعيد وجهه.. إلا أنه كان قد وصل لقراره..

- (بيومي).. أحمل هذه المرآة وضعها في (البوكس)..

وهنا أصدرت وسوسة بشفتي منادية (عادل)، فهرع ليرى ما بي وقد بدا عليه شيء من الضيق لخروجي من المطبخ، قلت له هامسة:

- من هؤلاء؟

- مخبر عندي وأستاذ أمراض نفسية من أصدقائي القدامى..

- وهل عرفت شيئًا عن المرآة؟

- وجدنا بائعك.. وعرفنا منه أنه ابتاع المرآة من مخلفات بيت مهندس ريّ..

وكان هذا قد ابتاعها من مزاد صودرت فيه أملاك أحد أعيان ما قبل الثورة.. والملاحظ هنا أنه...

- ماذا؟

- كل من امتلكوا هذه المرآة قتلوا أو انتحروا.. كلهم.. لقد جلبت هذه المرآة الخراب لبيوت عدة..

- وهل رأيت شيئًا أمس؟

احمر وجهه وهمس في ضيق:

- أشياء مشينة.. بخصوصك..، إن هذه المرآة اللعينة كانت تبذر الشك في نفسي تجاهك طيلة الليل..!

- ولهذا جئت على غير موعد وسالت إن كنت وحدي؟!

نظر لي في حيرة.. ولم يرد.. ثم أنه أدار ظهره ليلحق بالرجلين لولا أن ناديته مرة أخرى:

- (عادل).. الورقة تحت زجاج (البوفيه) كانت في المرآة.. لا أدري بأية لغة كتبت..

اتجه على الفور ومد أظافره ليخرج الورقة..

ثم إنه نادى الرجل الأشيب وشرعا يتفحصانها..، هتف الرجل في ثقة وهو يتأمل الورقة:

- لاتينية.. لغة لاتينية.. أنا أقرؤها إلى حد ما.. فلنر ذلك.. الشيطان يسكن هـ.. هذه الـ.. هذه المرآة.. لا.. لا تصدقوا ما.. منه.. ترونه منه..

ثم رفع رأسه مرددًا العبارة كاملة:

- إن الشيطان يسكن هذه المرآة فلا تصدقوا ما يريه لكم..

نظر له (عادل) في حيرة.. وهمس..

- ومن تظنه كتبها؟

- لن نعرف أبدًا.. لكنه كان صادقًا.. هذه المرآة تعابث من يملكها وتريه أحداثًا من الماضي وأحداثًا كاذبة من المستقبل.. وبالتالي تختلط عليه الحقائق ويجن أو يؤذي أحباءه..، على أنها كانت صادقة في نبوءة واحدة..

- وما هي؟

- منظر الأحجار الذي ملأ صورتها.. كانت تعرف تمامًا أنها ستنتهي حياتها دفينة في الجبل بين الصخور.. وهو عقاب تستحقه تمامًا..

- إذن فلنسرع بإنهاء هذه المأساة..
وسمعت جلبتهم إذ ينصرفون..
وسمعت انغلاق الباب..
فخرجت وحدي إلى الصالة أنظر إلى الركن الفارغ الذي احتلته المرآة لشهر كامل.. الركن الذي غدا بالتدريج أهم أركان الدار..
فشعرت بحنين لا يمكن تبريره..!
هل أنا حقًا عاطفية وحمقاء إلى هذا الحد؟..

* * *

- ١ -

قالت (سهام) وهي ترشف (الكاكاو):

- ماذا تقولون عن هذه القصة؟..

قالت (هويدا) مبتسمة:

- إذا ما تناسينا أنني لا أعرفها بتاتًا، يمكن القول أنها غريبة.. لكنها غير مرعبة..

قلت وأنا أشعل سيجارة أخرى:

- بالعكس.. هي مرعبة لكنها غير غريبة.. إن (كوابيس المرآة) قديمة قدم

القصة الثانية



يحكيها : د. (محمد)

المرأة نفسها، على أن إحساس الناس بالرعب يتفاوت بتفاوت سعة خيالهم..

ونظرت نحو د. (سامي) مبتسمًا:

- إذن أنت تعرف هذه القصة.. وظللت صامتًا كل الوقت.

- الرجل المهذب هو من يتحمل سماع النكتة لنهايتها قبل أن يعلن أنها قديمة..

- كلام لا بأس به.. والآن.. فليقل د. (محمد شاهين) قصته..

أجفل الرجل الطيب - وكان موشكًا على النوم - وصاح في ارتباك وهو يجلس معتدلًا:

- ماذا؟.. ولماذا أنا بعدها؟

- إنها الحروف الأبجدية.. (سهام) ثم (محمد)..

- آه.. إذا كان الأمر كذلك.. إن قصتي..

ثم تذكر شيئًا.. فنظر لي معاتبًا.. وهتف وقد (تبيّن) أنني أتلاعب به..

- أية حروف أبجدية؟.. لو كان هذا صحيحًا لبدأت مدام (ثريا) ثم تلاها د. (رفعت).. ثم...

كدت أموت غيظًا فقلت له ماضغًا (فيلتر) السيجارة:

-.. إذن.. الترتيب بحسب السن..!

تنهد في ارتياح وقال:

- ما دام الأمر كذلك لا مشكلة هنالك.. والآن اصغوا لي....

❋ ❋ ❋

قال د. (محمد):

كما قلت لكم من قبل.. إن لغرائز الحيوان هيبة واحترامًا في نفوسنا نحن البشر الذين أوهنت الحضارة حواسنا..، إن الحيوان يرى أفضل منا ويشم أفضل منا ويسمع أفضل منا.. أما الأهم فهو أن الحيوان يملك حاسة الخطر.. الحاسة التي لا نملك منها سوى النزر اليسير أو لا نملكها على الإطلاق..

❋ ❋ ❋

كنت طالبًا قرويًا بسيطًا أعيش في (القاهرة) المدينة الصاخبة القاسية التي لا ترحم..، كانت الحرب قد انتهت منذ أعوام واستسلمت (ألمانيا).. وكانت هناك حركات ثورية تغلي واضطرابات وآمال

كبار..، لكني كنت بعيدًا عن كل هذا في قوقعتي الخاصة..

كان رفاقي في الجامعة يثرثرون ويرافقون الفتيات ويمرحون ويتأنقون..

لكني كنت منزويًا في حيائي الريفي الطبيعي.. والأمل الخافت الذي لا ينفك يراودني: ستفخرون يومًا أنكم عرفتموني..!

أي ضير في أن تسخر الفتيات من حذائي؟.. لقد سخرت فتاة من (بنيامين فرانكلين) يومًا ما وأطلقت عليه (الكائن العجيب) ثم لم تلبث أن قبلت بكل فخار أن تكون زوجته حين صار المصلح والعالم الأمريكي الأشهر..

أي ضير في أن يتهكم الشباب على ثيابي؟.. إن (بيتهوفن) كان كريه الرائحة قليل الاستحمام.. و(ألكسندر دوماس) كان قبيحًا كقرد.. وحتى (أينشتاين) اتهمه مدرسوه بالتخلف العقلي...

كنت واثقًا أنني أصنع نفسي..

وكنت أجد ما بين صفحات الكتب ما ينسيني عذاب اللحظة..

لكن شعورًا واحدًا كان يمزق فؤادي...

الوحدة..!

الوحدة المريرة التي لن أتحملها يومًا آخر بأي حال.. كنت أعيش في غرفة حقيرة في أحد أحياء القاهرة الشعبية.. وكانت بعض أسر العمال تسكن جواري، فلم يمنعني هذا من إدراك أية متعة يعيشها هؤلاء البؤساء

بين أسرهم.. صوت الضحكات.. لعب الأطفال.. الشجار.. عبارات السباب.. كل هذا كان يمزقني تمزيقًا، وحتى قشور البطيخ الملقاة في الزقاق كانت تؤلمني.. فهي كميات أكبر بكثير مما يستطيع شخص واحد أن يلتهمه..!

كنت أحيا في هذا الجحيم..

وبدأت أفهم لماذا يتزوج البشر.. إنه الضمان الوحيد كي تجد إنسانًا آخر ملكك لا يتركك وحيدًا أبدًا..

كنت غارقًا في لجة الكآبة حين قابلت (جمعة)..!

كان صغيرًا بحجم قبضة اليد.. قذرًا كمصرف للمجاري.. شرسًا كالنمر.. جائعًا

كسمكة وليدة.. تعسًا كالشيطان.. وحيدًا مثلي..

هنالك أمام بابي وجدته.. مجرد قط وليد منبوذ يرتجف بردًا وجوعًا ويموء بتلك الطريقة الصامتة الواهنة التي تجيدها القطط وتسلب بها قلوبنا.

حملته إلى الحجرة.. ووضعته في سلة الخبز الفارغة التي أرسلتها لي(الحاجة) من قريتي، وأحضرت له بعض الفاصوليا التي كنت قد طهوتها لنفسي فأعرض عنها في اشمئزاز مبديًا رأيًا لا بأس به في طهوي..

فتحت له علبة من السمك المحفوظ وشرعت أضع أمامه قطعًا منها فذاقها بلسانه أولًا.. ثم بدأ يأكل..

حين انتهى راح يلعق أسنانه بلسانه، فحملته في قبضتي إلى صنبور الماء وغسلت جسده وسط محاولات إفلاته المضحكة ومواءه الرفيع (من حسن الحظ أننا كنا في (يوليو) لأن غسيل القطط الصغيرة تحت الصنبور خطأ قاتل**!**).

ثم جففته وشرعت أرمق شعره الثائر المحتشد في أشواك..

وكان هذا هو الحب الأول في حياتي..**!**..

أسميته (جمعة) لأنني كنت مثل (روبنسون كروزو)5 وحيدًا في جزيرة قصية إلى أن وجد صحبة، وهذه الصحبة كانت بدائيًا جاءه في يوم جمعة، فأسماه بنفس الاسم..

لقد غير (جمعة) حياتي تمامًا..

صار لي هدف أحيا من أجله وأعود لداري من أجله..
كان يرقد على قدمي حين أنام.. ويلعق وجهي مع شعاعٍ الفجر الأول.. ويرتمي على ظهره معابثًا خفي..، ثم يتربع على مكتبي الحقير أمامي إذا أدرس مصدرًا ذاك الهرير الرائع المنتظم..
الواقع أنني كنت أملك يقينًا لا يتزعزع أن هذا القط هو أخي..
فقط هو مصاب بعيب خلقي بسيط يجعله يمشي على أربع ويأكل السمك ويموء، ولابد لي أن أقبله كما هو لأني أحبه!..
ظلت الأيام تدور بنا..
وفي الأوقات القليلة التي كنت أفارقه فيها إلى قريتي كنت أعطي مفتاح الحجرة لـ

(آمال) ابنة الجيران كي تطعمه..
كان هذا في الفترة السابقة للقائي بـ (داغر)..

* * *

اسمه عجيب.. أعلم ذلك..
لكن وجهه أكثر غرابة.. فهو شاحب اللون رمادي العينين تتطاير خصلات شعره الأبيض في الهواء.. ضخم.. مهيب... وكانوا يقولون أنه من أصل تركي يبرر مظهره غير المألوف واسمه العجيب..
وكان من أوائل الشباب الرقيع الذي تخلى عن الطربوش.. وبرغم أن كثيرين قد

حذوا حذوه في تلك الأيام - أواخر الأربعينات - إلا أنه كان أولهم..
قابلته في الجامعة يدرس الفلسفة..
كان على النقيض مني في كل شيء.. ولن اشرح كيف..
لكنه كان شخصية مغناطيسية يلعب ذات الدور الذي تلعبه البلورة الصغيرة حين تعلقها في سائل مشبع..، إنه مركز تبلور.. وآراؤه وكلماته تغدو هي (الرأي العام) بعد أيام من قولها..
ومن اللحظة الأولى أدركت أنه لن يكون صديقي...
لكن (داغر) أصر على العكس...
وكان له ما أراد..

* * *

كنت جالسًا في المكتبة أطالع بعض كتب علم الأجناس حين وجدته يتخذ مقعده جواري..، العطر الغريب الذي يذكرك بشيء لا تدري كنهه وأنامله الدقيقة كأنامل أفضل عازفي البيانو..

قال لي وهو يقلب صفحات كتاب:

- إننا زميلان.. هل تعرف ذلك؟.. إذن لماذا لا نتعرف؟

- (محمد شحاته).. من إحدى قرى (القليوبية)..

ابتسم في شيء من الرقة الممزوجة بالتهكم.. وقال:

- إسمي (داغر).. (داغر السفير).. وعلى كل حال أنا لم أطلب معرفة محافظتك..
- هي العادة لا أكثر..
وبدأنا نتحدث.. كان مسليًا وواسع العلم لكنى لم أستطع أن أحبه.. نفور لا سبب له ينتابني تجاهه، ذلك النفور الذي فسرته بحقدي المحتوم على طالب مثله يملك كل شيء...
لكنه كان لزجًا كالذبابة..، كانت نظراته محملقة ثابتة إلى درجة مزعجة تسلبك حريتك تمامًا.
الخلاصة أنه كسب أرضًا بعد هذه المحادثة.. وصار من يجذب مقعدًا إلى جواري في أي مكان أجلس فيه دون أن أتمكن من الاعتراض..

هل هو اجتماعي إلى هذا الحد الذي يحرص معه على ألا يفلت طالب من دائرته؟.. أم هو يتسلى بهذا النمط الساذج الغريب الذي كنته؟... إن لديه أصدقاء كثيرين ويمكنه دائمًا أن يشغل وقت فراغه..

بل أنه - صدق أو لا تصدق - طلب زيارة داري..!

كدت أجن.. وطفقت أولول وأصرخ وأؤكد له أن داري ليست دارًا بل هي أقرب إلى الحظيرة أو السوق أو مخزن الكرار..، وأنه حتمًا لن يحب رؤيتها فضلًا عن دخولها.. فلا داعي لهذا التودد..

إلا أنه ابتسم في لزوجة.. وأكد لي:

- إنني على غير ما تحسب.. وجميع الأماكن عندي سواء...

- ما دمت مصرًا..، على الأقل سأجد لك كوبًا مكسورًا هنا أو هناك يصلح لتشرب فيه شايًا..!

- كما تريد...

وفي مساء الأربعاء أولجت مفتاح الباب في القفل.. ودخلت الغرفة ومعي هذا الأخ المتودد.. وشرعت أزيح الزجاجات المكسورة والخرق وعلب السمك المحفوظ الفارغة التي تسد طريقه إلى المقعد الخشبي الوحيد..

- ليست غرفتك بشعة إلى هذا الحد.. تبدو لي كغرف الرسامين التأثيريين في (مونبارناس).

لم افهم هذه العبارة لكنها أكدت لي انه قد سافر إلى هذه الـ.. الـ.. مومبراس مرارًا.. ولا بد أنه مكان رائع فيما عدا غرف الرسامين التأثيريين القذرة التي تملؤه!، ما علينا.. سأعرفه بأخي السنوري (جمعة) الذي سيعطي لحديثنا أرضًا أوسع.. خاصة وكل الناس مولعون بالحديث عن الحيوانات والأطفال..

- (جمعة)..!.. أين أنت؟.. أيها الهر السخيف..!

- هل لديك هر؟

سألني وقد تبدل تعبير الارتياح المرتسم على وجهه.. لا أكذب إذا قلت أنه بدا قلقًا ومتوترًا..

سألته في مداعبة واضحة:

- يبدو أنك لا تحب القطط؟..
- ولا الحيوانات عمومًا..
- ولكن صبرًا حتى ترى (جمعةٍ)..
وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد..
كان هنالك في الركن المظلم متكورًا حول نفسه وقد انتفشت شعيراته والتمعت عيناه في الضوء كفيروزتين، وكان يصدر زئيرًا متوترًا غير عادي.. فلما مددت يدي نحوه أصدر فحيح الأفعى..



وركعت تحت الفراش باحثًا عن ذلك القط العنيد ..

إن هذا القط خجول أكثر مما توقعت..
امتدت يد (داغر) إلى ظهري حيث انحنيت راكعًا تحت الفراش.. وسمعت صوته الرخيم العميق يغمغم:
- دعك منه الآن..
فليكن..، وعدت أزحف على ركبتي خارجًا، ووقفت على قدمي أمام الفتى الذي مد يده يزيل شيئًا ما من على ذقني.. ويبتسم:
- وجهك غارق في الغبار وخيوط العناكب... لقد أنذرتك..
وعلى السقف تحرك صديقي البرص مغادرًا داره ما بين ألواح الخشب التي تدعم الحجرة..، وهو حدث غير مألوف

في هذه الآونة من العام. لكنه حدث وأرجو ألا يلاحظ ضيفي ذلك..

دعوته للجلوس فجلس على مكتبي المتهالك الذي أدرس عليه كيف أكون أعظم إنسان في العالم، وبدأ يتحسس كتبي بيد فضولية..

- تدرس كثيرًا..
- ليس لدي عمل آخر..
- قراءاتك متنوعة..
- إنه ذلك الظمأ المقدس للمعرفة..

وشرعت أعد له كوبًا من الشاي مكتشفًا - في كل ثانية - أية حياة حقيرة أحياها وأية هاوية أنا مترد فيها، وهو الاكتشاف الذي كان يعاودني كلما زارني أحدهم.. لا يوجد

براد نظيف.. لا ملعقة غير صدئة.. لا كوبًا غير مشروخ.. تبًا لها من حياة..!

على أنه لم يبد مهتمًا بكل هذا..

بل أنه أخذ كوب الشاي بتؤدة ونوع من الامتنان.. ثم اخرج علبة تبغ جلدية أنيقة وناولني لفافة رفضتها شاكرًا:

- لا أدخن.. شكرًا..

أشعل لفافته في تؤدة وبحث بعينيه عن مطفأة لكني أشرت له ألا مانع من إلقاء الرماد على الأرضية..، بدأ يدخن لحظات.. ثم قال لي:

- أنت لا تدخن.. وتقضي الوقت في الدراسة.. إنك نموذج الطالب المجد الذي كنا نرى صورته في كتب المطالعة الابتدائية..

سرني هذا المديح لكني فطنت إلى أنه كان يتهكم.. إذ أردف:

-.. وطبعًا تتوقع أنك تبذر بذور مجدك وأن هذه الغرفة هي الشرنقة التي ستحلق منها فراشة آمالك..

- لا أدري.. لكنني أحاول..

قال لفظة فرنسية لم أدر معناها.. لكنها - بالتأكيد - تحمل معنى الهباء أو كما نقول (كان غيرك أشطر).. ثم أنه رشف جرعة شاي.. وقال:

- أنت غارق في الحلقة الدامية الشهيرة.. من لا يستحق يجد.. ومن يستحق لا يجد.. ومن الحمق أن تظن أن هذه الحلقة كانت تنتظرك دون ملايين البشر كي تحطمها..

آه!.. ها نحن أولاء قد بدأنا نغمة التعالي.. هو ذا ذلك المدلل ابن المدينة يحاول بمقص من منطق أن يزيل جناحيّ..

قلت في فتور:

- لكني أحاول.. أليس كذلك؟..

لمس نغمة الجفاء في صوتي فقرر أن يتبسط قليلًا.. وبدأ يثرثر عن (العقاد) و(طه حسين) ومعارك الأحزاب.. إلخ...

ليت كلب الجيران يكف عن النباح لحظة.. ماذا دهاه هذا المخبول؟

مضت لحظات ونباح الكلب مستمر ويتعالى.. مع صوت سباب من جاري أبي (آمال) يصف كلبه بأقذع النعوت..

توتر (داغر) بعض الشيء وبدا أنه غير قادر على الاستمرار.. ثم كور بقايا لفافة

تبغه ورمى بها أرضًا.. وتنهد:
- سنواصل حديثنا في وقت آخر..
وتهيأ للانصراف مما سرني كثيرًا وإن تظاهرت بالعكس.. وعلى باب الحجرة استدار وتشمم الهواء الراكد.. وهتف:
- تذكر.. أنت تستحق ما هو أفضل..

❋ ❋ ❋

حين عدت لغرفتي شعرت بروحي تضيق حتى لتتصاعد إلى السماء.. لقد نجح هذا الوغد في إفساد التعود الذي كنت أستعين به على حياتي، ورغم أنني ريفي فإن دارنا كانت أجمل وأنظف من هذه الغرفة مئات المرات..
لا تظلموني يا رفاق..

ربما أنا ضعيف الشخصية أو طيب القلب لكن ليس إلى هذا الحد..
ومهما كان أحدكم يحب زوجته فهو خليق بأن يمقتها إذا ظل هناك من يقبحها في عينه ليلًا نهارًا.. إن الرضا كوب من الحليب تكفى ذبابة انتقاد واحدة كي تعكره إلى الأبد..
أما المشكلة الحقيقية فكانت مع (جمعة)..
إن هذا الهر الأبله كان متوترًا متحفزًا بشكل غير عادي، بل إنه ظل يرتجف طيلة الساعتين التاليتين وعزف عن الأكل حتى كدت أموت رعبًا عليه..
كانت العاشرة مساء حين قرعت الباب (آمال)..

ابتسمت في رقة معتقدًا أنها جاءت بعذرٍ مختلق لمجرد أن تتبادل كلمتين أو ثلاثًا معي قبل أن تأوي لفراشها.. صحيح أن هذه الفتاة لم تبد مطلقًا أي اهتمام بي لكني كنت أضع (بنيامين فرانكلين) نصب عيني..!

لكنها كانت جادة..

كانت متوترة حقيقة لا تمثيلًا..

وقالت وهي تبتعد عن الباب في حياء:

-.. لا مؤاخذه يا سي (محمد) على مضايقتك.. ولكني كنت عائدة للبيت حين رأيت هذا..

- رأيت ماذا يا (آمال)؟

أشارت إلى الأرض.. إلى عتبة غرفتي الخشبية.. وتساءلت:

-.. من أين يأتي كل هذا النمل؟.. ولماذا يهرب من غرفتك أنت بالذات؟..

* * *

- ٢ -

قلت وأنا أعابث قداحتي -
- إن قصتك يا د. (محمد) تحمل روائح مألوفة لي.. هذا اللقاء لا يمكن أن يكون لقاء زميلين.. وإنني لأشم روائح د. (فاوست) بشكل أو بآخر..
ثم نظرت له في حدة.. واستطردت:

- هل أنت واثق أن (داغر) هذا لم يكن الشيطان؟.. وأنه لم يعرض عليك بيع روحك مقابل المجد أو الحكمة أو الثراء؟!!

قاطعني (شكري) في عصبية هاتفًا:

- هأنتذا تفسد القصة هذه المرة..!

نظرت له في غل.. من العجيب أن كراهية عارمة - لا مبرر لها - قد تسللت إلى علاقتي بهذا الملتحي، مقت غريب لعينيه الوقحتين - وسيجارته التي يلوكها طيلة الوقت - قد ملأ روحي.. وبرغم أنه يكبرني بعشرين عامًا على الأقل إلا أن نفورنا قد وصل إلى درجة القتل..!..

قال د. (محمد شاهين) في حياء:

- صبرًا د. (رفعت)... صبرًا.. إنك لواجد الإجابة على علامات استفهامك بعد

دقائق..
ثم أنه تذكر شيئًا.. فصاح محنقًا:
- بالمناسبة.. قلت لي أننا نحكي القصص حسب ترتيب السن.. هذا غير صحيح وإلا لكان أولنا هو الأستاذ (شكري)!.. تذكرت ذلك الآن!
ماذا أقول لهذا الرجل..؟
- د. (محمد)..
- نعم؟..
- هلا أكملت قصتك اللعينة هذه؟!!

* * *

قال د. (محمد) مواصلًا حكايته وقد احمرت أذناه قليلًا: حين انصرفت (آمال) بدأت أدرك أن هناك شيئًا ما ليس على ما

يرام.. بالواقع لم يكن أي شيء على ما يرام..

ركعت على ركبتي أتتبع سرب النمل الطويل الكثيف كأنه رسم بفرشاة سوداء على خشب الأرضية..

ها هو ذا.. إنه يتعرج حول نفسه متجهًا إلى أحد شقوق الحائط الكثيرة.. الموضع الذي يفر منه كل هذا النمل..

ما معنى هذا..؟

هجرة نمل في هذا الوقت من العام..؟

وقط متوتر كأنما أوصلت ذيله بقابس الكهرباء..

وبرص يعدل عن رأيه في الوقت الملائم لبدء البيات الشتوي..

وكلب يعوى كالمسعور دون سبب واضح..

كل هذا متزامن مع ذلك الشاب غريب الأطوار والمظهر.. الذي كان عندي من لحظات..

إن هذا يعني.....

وانتصب شعر رأسي (كان عندي شعر رأس في تلك الآونة) واستحال جلدي كجلد الإوزة..

لقد فهمت الحيوانات والحشرات ما لم أفهمه أنا..

* * *

ومضيت أجول الغرفة في قلق:

كان (جمعة) قد هدأ قليلًا لكنه متكور كالجورب القديم في ركن الفراش ويرمقني في توجس..

كف عن الهلع أيها القط السخيف.. أرجوك..

لم تعد لدي أعصاب تتحمل كل هذا..

ولكن.. ما سر هذا الإسم الغريب الذي يحمله؟.. إنني واسع الثقافة - كما تعلمون جميعًا. وكان من السهل أن أقول لنفسي أن (داغر) معناها (لص) وهي كلمة عربية فصحى لكننا نسينا معناها.. أما (السفير) فهو إسم مليء بالدلالات.. خاصة إذا ما استبعدنا معناه القريب الدارج..

أنا أعرف أن (لوسيفر) هو الاسم اللاتيني للشيطان.. وقد كان في الأصل يعني

(الزُهرة) حين تغدو (كوكب صباح) ثم اقترن بالشيطان في الديانة المسيحية لأنه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها للهلاك..

فهل ثمة دلالة معينة لتشابه حروف (لوسيفر) و(السفير)؟!..

إنني غزير العلم - كما تدركون جميعًا - وتفهمون أن الأدب العالمي هو مملكتي الخاصة.. وإن قصصًا مثل (فاوست) و(أحزان الشيطان) لا تغيب عن مخيلتي..

لماذا لا نعرف شيئًا عن نشأة (داغر) ولا اسرته ولا عنوان داره..؟ لماذا يزور الجميع لكن أحدًا لا يزوره..؟

الوغد..!.. لكم كان ناعمًا مهذبًا مؤذيًا كالأفعى...

كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان النمل قد أنهى هجرته غير المفهومة.. والقط في موضعه السابق..، حين سمعت دقًا متواصلًا على الباب..

فوثب قلبي إلى فمي..

اتجهت للباب في تؤدة وألصقت وجهي به.. وتساءلت:

- من هناك؟

كان هذا هو صوتي المرتجف.. المتوجس.. الرفيع كصوت سحلية مشنوقة..

وهنا سمعت الصوت الذي سيظل يفعم كوابيسي:

- إنه أنا.. (داغر).. إفتح يا (محمد)..!

* * *

- دا.. دا.. (داغر)؟.. مـ.. ماذا تريد؟

قال في سخرية:

- ليس لعب الشطرنج بالتأكيد.. نسيت مفاتيحي عندك..

- لحظة..!

وثبت كالملسوع إلى حيث كان جالسًا.. فوجدت المفاتيح التي تحدث عنها.. غريب هذا!.. أنا واثق من أنه لم توجد مفاتيح طيلة المدة التي تلت رحيله.. هذه المفاتيح برزت فجأة..!

حملتها بين إصبعين - كالثعبان - واتجهت للباب.. هل أفتحه؟..

لا أدري.. لكني - حتمًا - لن أتمكن من تمريرها أسفله.. إذن لا مناص من فتح الباب.. مددت يدي للقفل وأزحته في توتر.. ودخل (داغر) الغرفة.. كان وجهه الوسيم صارم الملامح يتلألأ بين الظلال وهو يدلف للحجرة وعيناه تلمعان ببريق غير مريح.. بريق لم....

مياااااووووو..!

انشب (جمعة) مخالبه في الملاءة وقوس ظهره ثم وثب بقفزة واحدة إلى ما تحت الفراش.. فقال (داغر) وهو يهز رأسه:

- إن هذا القط غريب الأطوار..

والتقط المفاتيح ودسها في جيبه.. وأردف:

- لماذا تحتفظ بهذا الوحش الشرس في داركِ؟..

كنت أنا أتعوذ وأردد الأدعية كي يتركني هذا (الشيء) سالمًا هذه الليلة.. وإلى الوراء تراجعت ثلاث خطوات..

- ماذا بك يا (محمد)؟.. لا تبدو طبيعيًا... هل حدث ما يضايقك؟

كان يدنو مني في تؤدة وعلى شفتيه ابتسامة معسولة..

- ابتعد عني..!!

- لماذا؟.. لماذا لا أدنو منك؟

كنت أتراجع للخلف محاذرًا أن أصطدم بالمكتب..

- ابتعد أيها الشيطان!!

ضحك والتمعت عيناه وتبدت أسنانه البيضاء النضيدة:

- أنا شيطان؟.. إنك ذكي يا صديقي..!

- أنت...

وهنا حدث الشيء.. الشيء الذي لم أتخيله في أفظع كوابيسي..

شممت رائحة غبار.. ثم هوى عرق خشبي عملاق من السقف.. وتطاير الغبار أكثر.. ثم بدأ الجحيم..

أخشاب تتهاوى.. الأرض تميد تحت قدمي.. قرقعة.. صخب.. صوت تهشم..، (راغب) يحاول أن يقول شيئًا ثم يسقط أرضًا.. عواء القط.. عواء الكلب.. رائحة عطن.. صراخ نسوة..

ثم لا شيء...

* * *

في مستشفى (القصر العيني) صحوت لأجد نفسي ملفوفًا في الضمادات وعشرات الأصوات تردد أن الحمد لله.. وفهمت ما هنالك..

لقد انهار طابقان من المنزل المتداعي الذي كنت أسكن فيه ولم يصب - بالطبع وكما هي العادة - سواي و(داغر)..

(داغر) المنحوس المسكين الذي عاد ليأخذ مفاتيحه دقيقة واحدة.. دقيقة واحدة لكنها كانت كافية كي ينهار المنزل فوق رأسه ومن حسن حظه أنه لم يقض نحبه..

(داغر) سليل الأرستقراطية الذي لعبت برأسه السياسة فانضم إلى إحدى المنظمات

اليسارية المتطرفة.. وتنصلت منه أسرته.. تاركة إياه يمارس دورًا اختاره لنفسه في توعية البؤساء من أمثالي بقسوة وضعهم الطبقي المتدني.. توطئة لضمهم إلى المنظمة..

(داغر) الذي تلقى جزاء حماسه المبالغ فيه في صورة كسر في الفخذ والذراع وارتجاج مخ لا بأس به..

الواقع أنني - في تلك اللحظة - لم أعد أمقت ذلك المعتوه إلى ذلك الحد..، طيلة حياتي كنت أتعاطف مع الفريق الخاسر...

حاولت أن أكسب صداقته من جديد.. لكنه كان قد تعلم درسًا لا بأس به، لهذا أفلت منى وعاد للدراسة من جديد.. وإن كان قد فقد مغناطيسيته أو لم يعد يعبأ بها..، ثم إن

(البوليس السياسي) استضافة بعض الوقت مما شفاه نهائيًا من التودد..

* * *

وفي المستشفى زارتني (آمال) وأمها.. وكانت سليمتين تمامًا، وكانت الأم قد أعدت لي بعض الحمام والأرز المعمر كأفضل هدية تعرفها لمريض (ولم تكن مخطئة تمامًا في هذا)..

أخبرتني في تفاؤل أن البيت أمكن إعادة ترميمه فلم يعودوا بلا مأوى.. وأقسمت أغلظ الأيمان أن آكل أمامهما في فراشي..، فلم أكذب خبرًا إلا أنني تجنبت سؤالها عن قطي وعن العزيز (جمعة)

الذي كان شريك حياتي لفترة وجيزة.. ثم ولى بعيدًا ككل ما هو رائع..

- قطك بخير يا سي (محمد)...

قالتها (آمال) في نعومة.. مما جعل وجهي يتهلل طربًا غير مصدق لما تقول..، أردفت مبتسمة:

- إن الحيوانات تشعر بالخطر قبلنا... لهذا نجا بعمره في تلك الليلة..

شرد ذهني وأنا ألوك الأرز إلى أحداث الأمسية.. هروب النمل وتوتر القط وذعر الكلب، كانت تشم الخطر وتتحفز ضده..

لكنى - كما هو واضح - أسأت فهم رسالتها وحسبت زائري المقتحم نوعًا من الـ....

إن مشاكلي لم تنته.. بل - بالأحرى - بدأت..

لكني أملك هدفًا.. وأعرف كيف أحقق هذا الهدف، لا أذكر كم من عظماء التاريخ قد انهارت غرفهم فوق رءوسهم.. لكني واثق من أنهم كثيرون..، وعما قريب سيفخر كل معارفي أنهم عرفوني.. وأنهم أحضروا لي الأرز والحمام حين كنت مريضًا جائعًا محطمًا..!

سيكون الغد حافلًا..، وفيه كل شيء ممكن.. أما اليوم.. فلأنم ملء جفوني..

* * *

- ١ -

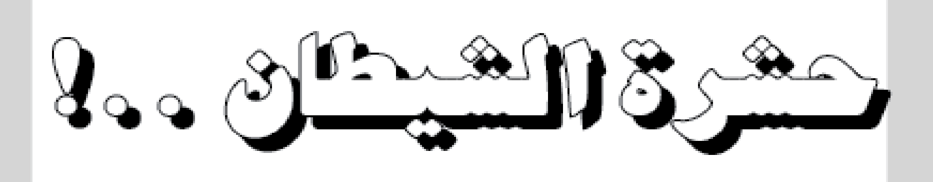
كانت الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل..

لقد هدأت الأمطار المصطدمة بزجاج النافذة.. لكن العواصف مستمرة...

وكنا جالسين نتحدث عن قصة د. (محمد)..

قال (عادل) في تهكم وهو ينهض ليريح ساقيه المتصلبتين:

القصة الثالثة



يحكيها: د. (رفعت)

- مرة أخرى تخدع يا د. (محمد) وتعطي صبغة غير مادية لأمور مادية تمامًا.. هل تذكر قصتك مع آكل لحوم البشر؟..

- إن ما حدث كان خديعة.. لكن رعبه كان حقيقيًا..

قالها (شكري) وهو يدون بعض الأفكار في (أجندة) صغيرة.. ثم أنه نظر لي متسائلًا:

- والآن.. قصتك يا د. (رفعت)..

نهضت واضعًا يدي في جيبي.. وتفكرت حينًا.. ثم غمغمت:

- لا أدري حقًا.. إن لدى عشرات القصص.. لكنها جميعًا طويلة ولن تترك مجالًا لراو آخر..

ثم تذكرت شيئًا.. (يوسف).. وحشرة الـ (أنثروفاجا).. و.... كيف نسيت هذه القصة؟.. كيف..؟..

رفعت رأسي في تؤدة.. وقلت:

- حسن.. هناك قصة قصيرة نوعًا ولربما شوقتكم.. لكن عدوني إذا شعرتم بالملل أن تخبروني بذلك.. لا أحب أن أكون سمجًا أو ثقيلًا..

- غريب أن تقول أنت بالذات هذا!!

كانت هذه العبارة بالطبع صادرة من خصمي الطبيعي (شكري).. لكني تجاهلته وبدأت أروى قصتي للأناس المحترمين الآخرين..

* * *

قلت لهم:

إن أشد ما يثير رعبي لهو الجهل بالخطر..، وفي كل قصصي أردد عبارتي الخالدة: (لم أكن أعرف ذلك.. لأني كنت ساذجًا.. ساذجًا)..، تخيلوا لحظة دخول (ذات الرداء الأحمر) لجدتها التي لا تعرف أنها ذئب متنكر.. كلنا نعرف ذلك لكنها لا تعرف.. حتى لنكاد نصرخ: إهربي.. إهربي!.. لكنها – بالطبع - لا تسمعنا..

(جوناثان هاركر) يزور قصر (دراكيولا) وهو الوحيد الذي لا يعرف من هو (دراكيولا)...، رائحة الكبريت انبعثت من (كاترين) في القبو المظلم لكني لم أربط بين ذلك وبين مصاصي الدماء..

وفجأة تلتمع الحقيقة كضوء شهاب..
ويدرك بطل القصة - بعد فوات الأوان - أنه في مأزق حقيقي..
عندئذ تولد ذروة القصة..

* * *

كنت أدخر هذه القصة لأحكيها لقرائي.. لكن لما كانت أقصر من اللازم فإنني سأحكيها لكم الآن في حلقة الرعب الوليدة هذه..
كان ذلك في عام ١٩٦٤..
قابلته في الطريق العام في مكان ما من شارع (شريف)..
هل كنت رائحًا أم غاديًا... مكتئبًا أم متفائلًا؟.. أصلع الرأس أم غزير الشعر؟..

لا أذكر.. لكني - فقط - أذكر أن رؤيته فتحت أمامي كونًا من الذكريات..

كان بدينًا متلاحق الأنفاس يبلل العرق الغزير جبينه وموضع شاربه وتحت إبطيه، وكان يرتدي قميصًا صيفيًا واسعًا وبنطالًا رثًا.. الخلاصة أنني استشعرت أن أحواله على غير ما يرام...

سددت أمامه الطريق بجسدي ورسمت أفظع ابتسامات الرد على سحنتي.. فرفع نحوى عينين مذعورتين كأنما ناديته من كون آخر سحيق..

وللحظة احتشد للعدائية ثم بدأ يتذكر..

- (رفعت).. (رفعت إسماعيل)..!

- (يوسف).. (يوسف شوقي)..!

- يا لك من وغد قديم!

- ما زال لسانك يقطر لطفًا..!
هل تعرف هذه اللحظات الخالدة؟..
لحظة لقاء صديقين قديمين حين يتهاوى سد الأعوام.. وحين تبدأ - تلقائيًا - نغمة الحساب:
- ماذا فعلت أنا؟ وماذا حققت أنت طيلة هذه الفترة؟..
كم من الأحلام أثمرت شجراته وكم ذبل؟.. أية أمراض لم تحسبها تصيب مثلك وأصابتك؟.. ما أسماء أطفالك وهل هم حقًا موجودون أم أنك لم تنجب بعد؟.. هل ارتفعت خطوة أم هبطت خطوة أم أنك ما زلت كما أنت؟..
وكالعادة تم الاتفاق على اللقاء..

أعطاني وريقة صغيرة متسخة رسم فوقها - كيفما اتفق - كروكيًا يبين مكان داره، ودعاني إلى أن أزوره.. وليكن ذلك غدًا إذا أمكن...

وفي الموعد كنت هناك حاملًا علبة صغيرة من الشوكولاتة ورزمة من الذكريات، أنا أفهم هذه النوعية من الأمسيات.. سيعرفني على سيدة بدينة متشككة يقول لي إنها (المدام) وعلى مجموعة من الأطفال الوقحين الذين يضعون الميركيروكروم على ركبهم.. ولسوف يقدم لي زجاجة مياه غازية وقدح شاي ولربما بعض (الجاتوه).. ثم نمضي الوقت في كلام من نوع: هل رأيت فلانة؟.. أين فلان؟.. هل تذكر كذا..

وكذا..؟.. كانت أيامًا رائعة ليتها تعود..، ثم نفترق على وعد بلقاء آخر.. وكالعادة لن يكون هناك لقاء آخر..**!..**

هكذا تمضي الأمور دائمًا..

ليس لي أن أتوقع أكثر..

لأنه لن يكون هناك أكثر..

❋ ❋ ❋

كانت شقته تنم عن ذوق رائع..

ودون جهد أدركت أنه غير متزوج..

لا تستطيع زوجة أن تنسق شقتها بهذا الذوق الرائع، دعك من أن الأطفال لن يدعوا حجرًا فوق حجر..

السؤال الوحيد هنا هو ذلك التناقض ما بين ثيابه الرثة وشقته الفاخرة المريحة

للأعصاب..، كيف ذلك؟.. وما سر عدم زواجه حتى تلك اللحظة ما دام غير مجنون مثلي؟..

إن الإجابة آتية لا ريب فيها..

أما الآن.. فلألعب دور صديق الصبا الودود..

إن (يوسف) بحاجة إلي لسبب لا أدري كنهه.. وعلي ألا أخيب ظنه...

❋ ❋ ❋

جلست في غرفة الصالون على حين أخذ يصدر أصواتًا تدل على الترحيب والحماس..

ثم أنه أحضر لي صينية عليها زجاجة مياه غازية، وهو يثرثر عن أصدقاء الصبا

ويسألني عن أسماء عديدة.. وعن مهنتي.. وعن رحلاتي.. وعن كل شيء..

- (رفعت)..!.. إنني بحاجة إليك..!

قالها - دون مناسبة - وكنت أتوقعها تمامًا.. ثم انفجر في البكاء دون أي مبرر.. وأنا لا أحتمل هؤلاء السخفاء الذين يبكون فجأة.. فهم يجعلون الحياة غير محتملة..

لكني نهضت نحوه وقمت بواجبي تجاه صديق يبكي..

قدمت له منديلي ثم عدت لمقعدي وشرعت أدخن وأرمقه في دهشة، تمخط في المنديل - اللعين! - ثم أعاده لي شاكرًا فطويته ودسسته في جيبي مشمئزًا..

- معذرة يا (رفعت).. كل ما في الأمر هو أنني..

- نعم.. نعم.. تشعر بالوحدة.. هذا واضح..
- كلا.. انت لا تفهم..
ثم جلس جواري وحدق في عيني بعينية المذعورتين الغائصتين في لحم وجهه البدين - كأنهما ثقبان في كرة من الصلصال - وجفف العرق من على جبينه وبدأ يلهث..
- إنهم خلفي..!
- حقًا..؟!
قرب وجهه من وجهي.. وهمس في جزع:
- أقسم لك.. إن هي إلا دقائق.. ساعات.. أيام ويجدون مكاني، وعندئذ..
- وعندئذ:

- عندئذ سيتذكرون!

الآن اتضح لي الأمر.. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ولقد سمعتها مرارًا من قبل..، حين دعاني (يوسف) إلى داره كنت أخاله يخفى لي ما هو أفضل من (البارانويا)6 لكنه - للأسف لم يكن يملك سواها.. وها هو ذا يردد نفس الكلمات التي نسمعها في كل حالة عن الآخرين الذين يبحثون عنه ويراقبونه...



الآن اتضح لى الأمر .. أنا أعرف هذه السمات وأفهم هذه النغمة تمامًا ..

يجب أن أنصرف.. ولكن في سلاسة لأن مريض (البارانويا) مرهف الحس ويمكن أن يغدو عدوانيًا.. كما أنه في أقرب فرصة سيعتبرني (منهم) مما يجعل بقائي وحيدًا معه خطرًا لا بأس به..

- يتذكرون ماذا؟..

-.. يتذكرون أنني السبب في وجودهم..!

- آه..!.. فهمت..!

ولعنت في سري أعباء الصداقات القديمة..

لماذا - أنا بالذات - كلما قابلت صديقًا قديمًا وجدته قد غدا لصًا أو قاتلًا أو مجنونًا؟!..

كان يجفف عرقه في عصبية ويقول:

- في كل ليلة يجافي النوم عيني وأدعوا الله ألا تكون هذه هي الليلة المختارة..
هرشت عنقي في تؤدة.. ثم قررت أن أجازف:
- (يوسف).. لماذا لا تتحدث بالتفصيل؟.. أنت تتصرف وكأنني على علم مطلق بكل ما تقول..
- حقا؟
- إن كلماتك المبتورة تدعوني لإساءة الفهم كما تعلم..
- وتظنني معتوهًا؟
هززت رأسي محاولًا أن أنفي ذلك ثم وجدت ألا داعي لذلك فهو منهك ومستسلم ولن يفيده بشيء أن أنكر..
قال في لوعة:'

- لا ألومك كثيرًا.. أنا نفسي لا أملك الثقة الكافية كي أنفي ذلك أو أؤكده، وأحيانًا ما أحسب كل ما مررت به كابوسًا ثقيلًا.. ولكن.. لماذا لا أحكى لك كل شيء بالتفصيل؟.. هل أنت مرتبط بموعد اخر؟

- بتاتًا..

- إذن سأحكي لك كل شيء..

* * *

سأحاول هنا أن أكون دقيقًا وأن أحكى كل ما قاله لي على مدى ثلاث ساعات، بالطبع هناك تفاصيل منسية لكنها - أو هذا ما أرجوه - غير جوهرية في قصتنا..

حدثت قصته في عام ١٩٥٧..

في ذلك الوقت لم يكن (يوسف) في (مصر).. بل كان موفدًا إلى (ألمانيا) في رحلة دراسية بغرض الحصول على درجة علمية في الآفات الزراعية ومقاومتها.. تلك الدرجة التي - لأسباب سنعرفها فورًا - لم ينلها قط..

كان الفتى منبهرًا تمامًا بكل شيء...

وخاصة بأستاذه العجوز (أوبرمان) الذي أيقن تمام اليقين أنه يعرف كل شيء عن أي شيء يخطر لك..

وكان فريق عمل مكونًا من فطاحل العلم مجتمعًا في ذلك المعمل قرب (لايبزيج) عاكفًا على دراسة الاحتمالات التي لا تنتهي للتوازن البيئي..، والسيطرة البيولوجية على الآفات..

حين يزخر بيتك بالفئران يمكنك دائمًا أن تبتاع سمًا.. لكن الحل الأدنى للطبيعة هو أن تبتاع قطًا، وفي (مصر) يلتهم سمك المبروك قواقع البلهارسيا. أو هذا ما يحاولون عمله. ويلتهم سمك الـ (جامبوشيا) يرقات البعوض..، وهكذا تعالج الطبيعة نفسها بنفسها..

لكن التوازن الطبيعي لعبة خطرة..

ففي بعض ولايات الهند - على سبيل المثال - اعتادوا تربية الوطاويط لتلتهم الفئران.. لكنهم - بعد أعوام - ألفوا أنفسهم أمام وباء حقيقي من الوطاويط..

كان العلماء الألمان يحاولون الحصول على افضل شيء من القوانين البيولوجية دون أن يفسدوا اتزان الطبيعة..

وهم يلعبون على ورقة رابحة إسمها (قانون الانتخاب الطبيعي)..
لم تكن الهندسة الوراثية متقدمة في ذلك الزمن السعيد ولا كل اللعب بجينات باكتيريا (إ. كولاي) البريئة الذي نسمع عنه اليوم..
لهذا كانوا يعتمدون على قانون الطفرات..، وعلى قابلية الصفة وليدة الطفرة على الاستمرار في عدة أجيال تصير كلها بالتدريج حاملة لهذه الصفة..
وعن طريق توليد عدة أجيال ترسخ الصفة وتتم تنقيتها وإضافة ما يلزم لها..، ولو أن مثل هذه التجارب تجري على بشر لاحتاجت ملايين السنين حتى تظهر نتائجها..

لكنهم كانوا يتعاملون مع نوع من الخنافس تشبه خنفسة (أبو عيد) المعروفة عندنا.. ومعها يمكنك إنتاج عدة أجيال في شهور..

كانت سلالة جديدة قد بدأت تنشأ لا علاقة لها بالأجداد.. وانطلاقًا من ولع العلماء بالأسماء المعقدة والرطانة فقد أسموها بالاسم اللاتيني (إنتوفاجا)، وهو - لمن يعنيه الأمر منكم - خليط من مقطعين لاتينيين معناهما (آكلة الحشرات)..

نعم.. هذه الحشرة الوليدة تأكل الحشرات الأخرى التي قد تتطفل على المزروعات، إن (الإنتوفاجا) أمينة على النبات.. شرسة مع أية حشرة لصة تسول لها نفسها الآثمة أن تسطو على الحقول..

(الإنتوفاجا) تتوالد كالأسماك - أو أسرع قليلًا - وحركتها سريعة وشهيتها جامحة.. ولونها أخضر تعجز الطيور عن تمييزه واصطيادها.. وفي حالة انفلات عيارها يمكن القضاء عليها بجرعة صغيرة من أي مركب فوسفوري عضوي.. جرعة لا تؤذي أي كائن أكبر منها...

إن الـ (إنتوفاجا) هي الحل السعيد لكل مشاكل الزراع..

لكن الألمان حذرون ولا يدعون شيئًا للمصادفة، وهم لن يعمموا الفكرة قبل تمحيص لا بأس به لعشر سنوات على الأقل لأنهم يعلمون أن الخلل البيولوجي يكون في الغالب فادحًا عسير الإصلاح..

والبحث العلمي هو نوع من اللحوم القاسية الألياف التي يجب أن تُطهى على نار هادئة لساعات طوال قبل أن تقدم للآكلين..

لكن (يوسف) كان عجولًا..

وكان - كما قلنا آنفًا - منبهرًا بكل شيء..

لهذا شرع في غرفته الصغيرة الأنيقة يصغي لموسيقا (باخ) السماوية ويحلم بما يمكن أن تحققه هذه الحشرة في (مصر).. أن يأتي اليوم الذي تبيد فيه هذه الحشرة ديدان القطن بعبع زارعي القطن ومصاصة دماء الاقتصاد المصري..

أن تملأ هذه الحشرة حقولنا لاعبة دورها الهام بإخلاص وأمانة ودون كلل..

إنه المجد..

* * *

بمرور الوقت بدأ الأستاذ (أوبرمان) يلاحظ تبدلًا في تركيز ومواظبة تلميذه.. أنت تعرف كيف يبدو الإنسان الذي استعبدته فكرة واحدة وكيف يتصرف، ها هو ذا (يوسف) يكف عن البحث في المراجع المطلوبة منه.. ولا يدون الملاحظات.. ويتأخر في الاستيقاظ صباحًا..

ثم أنه يحوم - أكثر من اللازم - حول معامل التحكم البيولوجي حيث تجرى تجارب (الإنتوفاجا) التي لم يكن له دور حيوي فيها..

ولعدة مرات أنذره الأستاذ...

ولعدة مرات توسل له (يوسف) أن يعطيه دورًا أكبر في تجارب هذه الحشرات، لكن العالم الألماني كان صارمًا لا يتزحزح...

وبدأت الخطة تختمر في ذهن (يوسف)..

إنه الآن - بعد ستة شهور - على خبرة لا بأس بها بما يفعلون وهو قادر على البدء في تجاربه الخاصة في هذا الصدد..، فقط تلزمه بعض البويضات وعدة حضانات توفر الظروف البيئية المثلى للفقس، على أن (الإنتوفاجا) كانت حشرة قوية يمكنها - كالصرصور - أن تعيش في ظروف قاسية جدًا سواء في القيظ أو البرد..، ولم تكن ثمة حاجة للتحذلق المعملي..

وهكذا..

طلب إجازة من هيئة البحوث ليعود فيها إلى (مصر)..

ثم أنه تسلل للمعمل وبجفت صغير نقل بعض الشرائح الزجاجية التي تراصت فوقها البويضات إلى علبة صغيرة مغلفة ومبطنة بالقطن الطبي..

واعد حقائبه وودع أساتذته مؤقتًا...

لكنه - هو وحده - كان يعرف أنه لن يعود أبدًا..

❋ ❋ ❋

كانت شقة صغيرة في (بنها) هي داره حيث يعيش وحيدًا، وهو في هذا يشبهني كثيرًا.. إلا أنه يختلف عنى في أن فكرة ضخمة صاخبة كانت تنسية هذه الوحدة

ولا تدع له وقتًا لأي شيء سواها.. إن الأفكار المصطخبة في رأسه كانت تجعل شقته مزدحمة، وكان يثرثر مع الأحلام.. ويتشاجر مع مخاوفه.. ويضحك من دعابات لم يقلها أحد..

هل جن؟.. لا.. لا أظن ذلك.. لكن كل الظروف كانت مهيئة لذلك لو لم يجد ما يشغله فلا يترك له وقتًا للجنون..

وكانت الحشرة هناك..

الحشرات اللامعة خضراء اللون شديدة الأناقة التي غادرت بويضاتها لتوها كي تتعرف جدران معمله والأقفاص الزجاجية المضاءة التي أعدها لها.. وتلتهم الذباب والصراصير وديدان القز التي كان يأتيها بها..

كان يعرفها حشرة حشرة حتى ليكاد يطلق عليها أسماء مميزة..

ويقول (يوسف) - ولا أدري كيف - أنه بدأ يفهم أن لكل حشرة شخصية متميزة وشكلًا متفردًا يفرقها عن زميلاتها..!

ومضت الأيام..

وبدأت الإناث تنتفخ بالبيض ثم تتحرك في تؤدة وثقة كي تضعه في صفوف متراصة على ألواح الزجاج الرقيقة المثبتة أفقيًا في أقفاصها..

وهكذا ولدت السلالة (إ-١) أولى سلالات هذه الحشرة في (مصر)..

وما أن اشتد عود الصغار حتى نقلها إلى قفص زجاجي آخر وشرع يعرضها لمؤثرات بيئية قاسية..، في البدء عرضها

لدرجات حرارة مرتفعة يومًا بعد يوم.. وكما هو متوقع هلك أكثرها لكن ما بقي منها كان قادرًا على تحمل درجات غير واردة أصلًا..

ثم جاء الجيل التالي (إ-٢) قادرًا على ذلك كله..

وشرع في كل يوم يبتكر مشكلة جديدة أو عائقًا من نوع آخر وذلك حتى وصل إلى الجيل (إ-٥٨)..

التقط بالجفت واحدة من الحشرات وطفق يتأملها..

كانت تختلف تمامًا عن الحشرة الأولى التي (استعارها) من معمل البحوث الألماني حتى كأنها نوع آخر مستقل تمامًا..

كانت أضخم حجمًا.. ولونها يميل إلى الحمرة.. ومنظرها غير مريح على الإطلاق.. وكانت تئز بصوت رتيب مفزع..

لكنها كانت (ابنته).. وكان يحبها كما يجب أن يحب ابنته..

مد يده في رفق أمامها..

فتحركت في حذر ودنت من أنامله.. وأحس بها تتلمسها بفمها..

ثم كانت العضة قاسية.. لكنه تقبلها في استخفاف بنفس الطريقة التي تتقبل بها أنثى الذئب عضات جروها الحانية لأذنيها..

- إنك قد صرت شرسة يا فتاة.. هيا إنزلي!

قالها وهو يمد يده ليلتقطها حيث وقفت فوق كف يده الأخرى..
لكنه فوجئ أنها متشبثة.. متشبثة إلى حد أنه قاتل قتال الشهداء كي ينتزعها من لحمه.. وحين استطاع أخيرًا وجد خيطًا من الدم ينسال من بقعة حمراء صغيرة في كفه..

- إذن أنت تحتاجين إسمًا آخر..

ووضع قطعة قطن على موضع النزف مفكرًا:

- (أنثروفاجا).. آكلة الإنسان..!.. نعم.. هو كذلك!.. هذا الاسم يلائمك تمامًا وأنت السبب في ذلك ولا أحد سواك!

وهكذا..

مضت الأيام في سلام..

إلى أن حدثت الكارثة التي يتوقعها ويعرفها ويخشاها كل عالم تمضي بحوثه دون مشاكل..، لابد من مصيبة ما..
وكانت هذه المصيبة في حالتنا هي عربة رش المبيدات التي تجوب الشوارع في وقت الغروب، وكان معمل (يوسف) مفتوح النوافذ في تلك الآونة طلبًا للتهوية.. وكان هو عاكفًا على تشريح إحدى حشراته تحت المجهر حين سمع صوت الموتور المألوف.. وامتلأت الغرفة بضباب ال (د. د. ت) طيب الرائحة شديد السمية حتى أن (يوسف) لم يعد قادرًا على رؤية كفيه.. كفيه اللذين راح يلوح بهما في هستيريا محاولًا إزاحة الدخان صارخًا كالملسوع:

- توقفوا يا أولاد الـ (.....)..!.. توقفوا..!.. إنكم تقتلونهم!

كان يعرف تمامًا ما سيجده عند انقشاع الضباب لأن الاقفاص الزجاجية كانت كلها مفتوحة من أعلى..

يا للكارثة!.. يا للخسارة..!..

في كل الأقفاص كانت (بناته) منقلبات على ظهورهن وقد لفظن أنفاسهن.. عشرات الأجيال.. مئات الحشرات.. إنه لم يتصور أن في العالم كله مشهدًا بهذه القسوة والبشاعة.. كل المجهود المضني الذي ضاع هباء..

لم يعد يرى شيئًا لأنه كان يبكي..

الدموع تشوه الموجودات.. وتسيل من أنفه فيحاول منعها بشهقات قصيرة

متوالية..

على الأرض تربع ممسكًا برأسه ينشج.. وفجأة سمع الأزيز.. وثب على قدميه كالملسوع إلى مصدر الصوت.. ولدهشته وجد عددًا من الحشرات من سلالة (إ-٥٨).. عددًا لا يتجاوز العشرين.. وكانت حية.. واهنة ضعيفة لكنها حية..

يجب إخراج هذه المخلوقات إلى الهواء الطلق..

إن الخيط لم يفارق أنامله بعد.. ويمكنه أن يجذبه ويعيد لفه حول إصبعه..

وفي حماس تخلص من الحشرات الميتة وبدأ يعد المكان لاحتضان هذه السلالة الناجية التي سره أن وجد بين أفرادها خمس إناث...

وهنا نشعر بالقلق..
ونود ان نصرخ في (يوسف) ألا يفعل..
لقد تحملت هذه الحشرات جرعة قاتلة من ال (د. د. ت)..
وهذا يعني أنها صارت منيعة تقريبًا..
وستورث هذه المناعة للأجيال التالية..
لكن (يوسف) لا يعلم ولا يتوقع شرًا..
وهذا هو بيت القصيد...

* * *

التمع ضوء البرق الفضي فاستدرنا في توتر نرمق ستائر النافذة وشعرنا بالقشعريرة..

قالت مدام (ثريا) وقد بدأ جفناها يزدادان ثقلًا:

- هل يرغب أحدكم في النوم؟

كان حديثها موجهًا لعدد محدود منا لأن رأس د. (محمد) كان قد تهاوى فوق صدره وتعالى صوت غطيطه، وكذا ألقت (سهام) برأسها للوراء وفغرت فاها.. أما (عادل) فكان يرمقني بعينين دمويتين يكاد الدم ينفجر منهما لولا غشاء الملتحمة الرقيق..

إن قصتي - كما هو واضح - لم تلق حماسًا كبيرًا..!

لكن ما عزاني كان هو د. (سامي) بجلسته المهتمة المتحفزة.. و(هويدا) التي انحنت للأمام كأنما انكسر ظهرها نصفين وقد أراحت ذقنها على قبضتها..

دعك من (شكري) العدواني المتحمس المستعد في أية لحظة لضربي..

قال (شكري) وهو يأخذ سيجارة من علبتي:

- إنها قصة لا بأس بها حتى الآن.. وهي تلعب على الوتر الإغريقي القديم: الإنسان الذاهب في إصرار أحمق إلى نهايته..

- إنه الافتتان.. الانبهار.. الفضول الذي جعلني أصر على استكمال تجربة مصاص الدماء.. وأقبل تشريح مومياء الفرعون..

ابتسم (شكري) في غموض.. وغمغم:

- الواقع يا د. (رفعت) أن اهتمامنا واحد.. ويمكن لتعاوننا أن يفضي إلى نتائج لا بأس بها.. فلديك ذكرياتك الرهيبة ولدي الموهبة..

- أشكرك.. لكني أملك بعض الموهبة أنا الآخر..

قال د. (سامي) وهو يتمطى:

- أكمل يا د. (رفعت) قبل أن تفلت خيوط القصة منا.. إن النعاس يهاجمنا وهو كفيل بأن يفسد كل شيء..

* * *

أين قد توقفت؟..

آه!.. عند السلالة التي نجت من المبيد الحشري ومحاولة (يوسف) أن يبدأ كل

شيء من جديد...

لقد استغرق الأمر عدة شهور...

إلا أنه - وبعد جهد مضن - استطاع أن يتملّى جليًا السلالة (إـ٦٠) تلهو في قفصها الزجاجي..

لقد تغيرت هذه الحشرات كثيرًا جدًا...

لونها أدنى إلى لون الدم، وحجمها يقارب حجم الجرادة، وشراستها كسمكة قرش..، صحيح أن تغير لونها أفقدها مزية هامة هي (المماهاة) أو بمعنى آخر قدرتها على الاختفاء وسط خضرة المزروعات بعيدًا عن عيون أعدائها الطبيعيين: الطيور..

لكنه بدأ يعتقد أن الطيور تحتاج لشجاعة غير عادية كي تفكر في اشتهاء هذه المخلوقات البشعة..

* * *

كان هذا هو يوم الجمعة..
وبعد سهرة طويلة مع أوراقه وملاحظاته دخل فراشه لينام...
كم نام بالضبط..؟.. لا يذكر..
لكنه واثق أن صوت أذان الفجر كان يتسرب عبر مصراع النافذة حين سمع ذلك الأزيز المألوف..
أدرك (أنهم) في مكان ما من الغرفة معه..
وحين مد يده لمفتاح الكهرباء..، وحين فتح عينيه في دهشة، وحين نهض من الفراش باحثًا بقدمه عن خفه..
كان يتوقع كل شيء سوى ما رآه...

لم تكن هناك واحدة منها ولا اثنتان.. بل عشرات..

عشرات الحيوانات الحمراء فوق الدولاب وعلى السجادة وفوق الستائر وتحت الفراش.. وكانت تموج بالحياة والصخب وتتحرك بثقة هنا وهناك، وتتزاوج.. وتلهو.. وتستكشف المكان..

فرك عينيه متوقعًا أن يصحو من الكابوس غارقًا في العرق..

لكن كل شيء ظل كما هو..

كيف غادرت هذه المسوخ أقفاصها؟.. وكيف وصلت هنا؟..

لقد صار الأمر خطيرًا..

هرع إلى الغرفة التي اتخذها معملًا وأضاء النور ليجد أن السلالة (إ-٦٠) هي

التي غادرت قفصها الزجاجي..، الغريب في الموضوع أنها استطاعت بشكل ما أن تزحزح الغطاء الثقيل وتتسل من تحته مغادرة سجنها.. والأغرب هو أنها عرفت طريق غرفته مسترشدة بالرائحة أو الإدراك فائق الحس لا يدري بالضبط..

لقد تفوقت هذه الحشرات على نفسها..!..

وكأي مصري صميم يجد جيشًا من الحشرات على باب دولاب غرفته ؛ خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات..، وهوى به على مجموعة منها..

لكن ما حدث كان عجيبًا..

وكأنما يضرب صفحة الماء.. اتسعت دوامة من الحشرات بلمح البصر تاركة

قلب الدائرة فارغًا حيث تهوي ضربته، فما أن رفع يده حتى التأمت حشود هذه الكائنات في ثقة وعادت تمارس حياتها..!..

جرى كالمجنون إلى زجاجة المبيد الحشري التي يضعها تحت الفراش وبدأ ينفث السائل السام على هذه الحشود..، لكن النتيجة كانت سلبية.. وكأنما أسعد الحشرات أن تستحم قليلًا بهذه المادة عطرة الرائحة...

المشكلة الأدهى كانت هي أن هرس هذه الكائنات مستحيل، فلو لم تراوغ.. تبقى حقيقة أن طبقتها (الكيتينية) المغلفة لها قاسية جدًا...

وكأنك تحاول هرس بارجة حربية..

وهكذا لم يبق أمامه سوى أن يجلب دلوًا وبعصا طويلة يسقط ما تيسر من هذه الحشرات في الدلو توطئة لإعادتها للقفص الزجاجي..

عملية مملة مرهقة اقتضت أربع ساعات من الجهد المتواصل..

إلا أنها انتهت أخيرًا، وأمكنه أن يعود للنوم في غرفة خالية من الأزيز..

هذا - بالطبع - بعد أن تأكد من إحكام غلق القفص..

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلمح فيها بصيص الخطر وسط ظلمات غفلته..

❋ ❋ ❋

لكنه نسي (عبد العزيز)..
و (عبد العزيز) - إذا لم تكن تعلم - هو الخادم العجوز الطيب الذي يبتاع له حاجيات السوق وينظف الشقة يوميًا ثم يغادره في الظهيرة ويتقاضى خمس جنيهات في الشهر..
ومن الإهانة لذكائكم أن أقول أن (عبد العزيز) كان ممنوعًا من دخول المعمل رغم علمه بما يدور فيه..، كان (يوسف) ينظفه بنفسه إلا أنه - في الصباح التالي -



خلع (يوسف) خفه بغية ضرب أكبر عدد من هذه الحشرات ..

وهوى به على مجموعة منها ..

وجد المعمل في حال يرثى لها من أثر أحداث الأمس.. حال لا يمكن تقويمها..
لهذا طلب من العجوز أن يعالج الأمر بحنكة..، وخرج إلى الشرفة يدخن ويرمق العالم بعينين لا تريان..
ثمة شيء يحدثه أن الأمور لا تمضي كما يجب..
إن هذه الحشرة توشك أن تكون منيعة..
وسلوكها الجماعي يثير حيرته إلى حد غير عادي..
إنها ذكية.. نشطة.. لا تتصرف بذعر الحشرات التقليدي..
فما معنى هذا؟..
يوجد حل واحد ألا وهو التخلص من السلالة (إ-٦٠).. ربما عن طريق دفنها،

وليحاول أن يبدأ من جديد باحثَا عن أجداد أغبى وأضعف لها..
نعم.. هو كذلك....
و.....
دخل من الشرفة قاصدًا المعمل مناديًا الخادم العجوز:
- (عبد العزيز)!.. ألم تنته بعد؟..
لم يرد الرجل، وهذه هي مشكلة الشيوخ.. كلهم مصابون بتصلب عظام الأذن وصمم الشيخوخة..
- (عبد العزيز).. أين أنت؟
وفي تؤدة دخل من باب المعمل مواصلا النداء:
- (عبده)!.. هل توفاك الله؟
لم يدر أبدًا إلى أي حد كان صادقًا..

هناك - جوار المنضدة - وجد أسوأ كوابيسه وقد تحقق..

لن أصف المشهد.. لكنكم تستطيعون أن تتخيلوه..

وتستطيعون أن تتخيلوا وجه (يوسف) في اللحظة التي أدرك فيها أي مأزق قد جلبه لنفسه..

وأية كارثة..

* * *

- ٣ -

الحيرة...!

الحيرة القاسية نحو ما ينبغي عمله.. وكيف الخروج من ورطته هذه..

ليس من المستحب أن يجد البوليس هذا المشهد لأن محاولة تفسيره ستكون عسيرة بعض الشيء..

وناظرًا إلى مسرح الأحداث بدأ يفهم كنه ما حدث..، والمفزع هنا أن الحشرات جذبت كم العجوز وأسقطته أرضًا.. فالعجوز لم يكسر قفصًا زجاجيًا عن طريق الخطأ كما قد يتبادر لذهنكم..

نعم.. لن أحكى التفاصيل لأن هناك سيدات بيننا لكني سأكتفي بالقول أن (يوسف) أصابه الهلع.. الهلع البري الوحشي.. فلم يدر ما يجب وما لا يجب..

كل ما فكر فيه هو إبادة هذه الكوابيس مع أثر جريمتها..

- سامحني.. فلن يضيرك هذا..

قالها موجهًا كلامه للعجوز الذي كان يعرف أنه لن يسمعه..، وهرع إلى المطبخ.. ها هي ذي زجاجة الكيروسين وعلبة الثقاب..

وبدأ يسكب السائل على الحشرات وعلى الجدران.. على كل شيء في المعمل..

ثم أسقط موقد (بنزن) على الأرض، وأشعل الثقاب وفر من الشقة سريعًا بعد ما أغلق بابها..

وفي بئر السلم دخن سيجارة بيد مرتجفة وقلب واجف.. ثم عاود الصعود ليجد -

كما توقع - الدخان خارجًا من أسفل الباب..
وخرج الجيران ليروا ما هنالك وقدموا شموا رائحة الدخان، فوجدوه يحاول فتح باب الشقة في هستيريا (وكان ذعره حقيقة لا تمثيلًا)، ثم إن بعضهم استدعى رجال الإطفاء الذين اقتحموا الباب..
لقد أتت النيران على كل شيء..
وفي المعمل تناثرت ذرات رماد لم يعرف أحد كنهها، وكيف لهم أن يخمنوا أن هذه الأجسام السوداء هي ما تبقى من السلالة (إ-٦٠)؟..
وحتى تقرير المعمل الجنائي لم ير في القصة كلها سوى خادم عجوز بائس أوقع

موقد (بنزن) مشتعلًا على الأرض ولم يدرك ما حدث إلا بعد فوات الأوان...
نموذج آخر للإهمال المؤسف في حياتنا..
أما (يوسف) فقد ترك كل شيء خلفه وجاء يعيش في (القاهرة)، ولا داعي للقول إنه صار حطامًا بشريًا..
سيظل شبح العجوز يطارده.. ومشهد الحشرة البشع.. وكل ما تلا ذلك من ملابسات درامية..
لكن الله تعالي رحيم وسيغفر له أكذوبته وطموحه المدمر ما دام قد أراح البشرية من هذا الكابوس الشنيع..
دعا الله كذلك أن يغفر له جريمة حرق حشرات حية وهو يعلم أنه لا يحرق بالنار إلا خالقها، لكنه لم يكن يعرف أية وسيلة

أخرى لتدمير هذه الكارثة البيئية التي أوجدها..

كان بحاجة لهدية الأيام التي لا تقدر بثمن..

النسيان..

❋ ❋ ❋

وفي شقته الجديدة بدأ يمارس حياة رتيبة..

وأخذ يتكسب عيشه عن طريق العمل كمحرر علمي لإحدى الصحف، يرسل لها أخبارًا من نوع (دواء جديد للسرطان) و(انتهت مشكلة الصلع)..

إلى آخر هذه السخافات التي لا يمكن الإمساك بها أبدًا..

أما هوايته في ساعات فراغه فكانت هي تحقيق طموح قديم له: أن يصير بدينًا كالفيل**!،** وقد بذل كل مرتخص وغال من أجل هذا الطموح.. حتى برز كرشه وصار كرة من الزبد غزيرة العرق متلاحقة الأنفاس...

وهكذا..

كانت الأيام تمضي.. وجذوة الذكرى تخبو.. وسمنته تزداد.. ومقالاته تتوالى..

إلى أن ظهرت الحشرة..

❋ ❋ ❋

جالسًا في غرفة مكتبه سمع الأزيز أولًا.. الأزيز الذي جعل شعر رأسه ينتصب وأمعاءه تتقلص..

شيء واحد في الكون يمكنه إصدار هذا الأزيز وهو لن ينساه أبدًا..

نهض في توجس إلى الشرفة الموصدة وأرهف السمع.. ثم انحنى على ركبتيه ودقق البصر..

ها هي ذي..

كانت منهكة خائرة القوى لكنها هي.. هي..!

ولقد تمكنت من الزحف تحت (شيش) الباب داخلة إليه..، ولكن ليتفحصها أولًا..

مد يده – في تقزز- إلى الحشرة الوحيدة.. ووضعها على مكتبه وتأملها في توجس.. إنه لن يخطئ هذا الشكل وهذا اللون.. إنها واحدة من سلالة (إ-٦٠) المشئومة

لقد بحثت عنه ووجدته..
مهتدية بحاسة لا تخيب فعلت..، مهتدية برائحته فعلت..، مختبئة في ثيابه فعلت..
المهم أنها قطعت هذه المسافة الشاسعة كقط أليف يقطع البلدان في أثر صاحبه..، لم تنسه بعد كل هذه الشهور..
وقد وجدته..
فهل هي أول الغيث؟!

* * *

حبس الحشرة كي يتأكد من أنها لن ترسل إشارة بيولوجية ما لصديقاتها، ثم عاد إلى غرفة نومه يرتجف..
لم يتصور قط أن هناك حشرات ناجية لكن هذا حدث، ومن المؤكد أنه نساها في

مكان لم تمسه النيران من الشقة.. أو
وهنا أدرك في رعب أن هناك احتمالًا آخر لكن يجب الإستيثاق منه أولًا..، لهذا هرع إلى الحشرة وأمسكها بأنامله وقرب عود ثقاب ملتهبًا من جسدها..

ولدهشته لم يحدث لها شيء.. وظلت تحاول التملص..

لقد كانت هنالك طفرة.. وهذه الطفرة جعلت بعض الحشرات ذات طبقة كيتينية عازلة للحرارة ولا تشتعل، وبالتالي استطاعت بعض الحشرات أن تنجو من الحريق الكبير...

ولكن هذا يعني..

نعم يعني ذلك..

يعني أنه لو عادت الى (أنثروفاجا) لزيارته فلن يستطيع القضاء عليها أبدًا!!

* * *

قلت لـ (يوسف) وأنا أضع ساقًا فوق ساق وأتأمل الغرفة:

- إذن.. هذه الحشرات لعنة أبدية..

مسح قطرات العرق من على جبينه وهتف:

- أظن ذلك.. ولو أنها تملك الذكاء الذي أؤمن أنها تملكه فهي ولابد آتية للانتقام مني كما ينتقم الابن من أبيه الذي حاول قتله!

- وكيف تمضي وقتك الآن؟

- في الترقب..!

تأملته في شرود محاولًا أن أقرر ما إذا كان مجنونًا أم عاقلًا..

لم أحاول أن أتبين ما إذا كان كاذبًا أم صادقًا لأنه بالتأكيد صادق في رعبه..

إن هذا الزميل في ورطة.. لكن من أدراه أن هناك حشرات أخرى؟

لماذا لا تكون هذه الحشرة التي رآها هي الوحيدة؟

- لأن ثلاث حشرات زارتني بعدها في مدة أسبوع!

- آه!.. فهمت...

ثم نظرت لساعتي..، إنه يحتاجني طبعًا لكن هذه مشكلته لا مشكلتي..

فلن أقضي حياتي جواره بانتظار أن يحدث شيء ما..، لهذا نهضت غير عابئ

بعينية المناشدتين..
- إسمع يا (يوسف).. أنا...
- إبق معى ساعة واحدة!
- ولكن....
- ربع ساعة آخر....
أنا أفهمه تمامًا.. وهو يرتجف هلعًا من الوحدة والعودة لمخاوفه لكن ماذا بيدي أن أفعل؟.. إن لدى مشاغلي وأعباء حياتي..
- (يوسف).. إن هذا لن يغير شيئًا.. كل ما يمكنك عمله هو سد كل فتحات دارك في إحكام.. وقضاء أطول وقت ممكن بين الناس...
احمر وجهه حقًا.. ونهض صائحًا ملوحًا بكفيه:

- كذا أنت!.. مثلهم جميعًا!.. كلهم يبدون علامات الفهم ثم يهرعون للحاق بفيلم السهرة حامدين الله على أنهم ليسوا في وضعي!!

ثم أرغى وأزبد.. وشعرت به يدفعني للباب دفعًا..

- اذهب... اذهب لتحصى أرباح اليوم وتغازل فتاتك وتلتهم أفخر الطعام.. ثم تنام شاعرًا بأنك فعلت ما عليك تجاه معتوه مثلي!.. ها.. اذهب...

وقبل أن أفهم ما حدث انغلق الباب خلفي كصفعة انهالت فوق قفاي، فلم أتمالك نفسي من الشعور بالإهانة..

***

شارد الذهن مطرقًا للأرض أدرت وجهي لأنصرف..
وهنا استرعت انتباهي مساحة كبيرة من اللون الأحمر على درج السلم الرخامي والجدار..
دققت بصري أكثر على ضوء المصباح الكهربي الخافت فوق الباب، فميزت عشرات.. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض وعلى الجدار..
حشرات ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة أبدًا..
حشرات أعرف وصفها.. وأعرف جيدًا معنى وجودها هنا..
لقد جاءت - كما توقع (يوسف) - ووقفت على الباب تنتظر..

كانت تتحرك حركات دوامية منتظمة عصبية بعض الشيء، كأنها تشعر بالتململ بانتظار شيء ما..

وكان منها من تعبث هنا وهناك.. ومنها من تستكشف..

لكنها جميعًا كانت تنتظر..

* * *

يجب أن أعبر هذه البحيرة من الأجساد المقززة طالبًا نجدة..

لكن ما إن حركت قدمي حتى وجدت أنه من المستحيل أن أطئ الأرض لأن هذه



فميّزت عشرات .. بل مئات الحشرات متراصة على الأرض

وعلى الجدار ..

الأشياء تكدست في الموضع الذي ستهبط فيه قدمي.. من الواضح أنها تتأهب لجذب الحذاء أو شيء مماثل.. لا مخرج من هذه الناحية..

تراجعت للخلف في تؤدة وبطء محاذرًا أن تبدر مني حركة عصبية..

وقرعت الجرس في هستيريا..

مرتين.. ثلاثًا.. ولا استجابة..

بحيرة الحشرات تخضع لنوع من المد.. ولسانان أحمران يسيران ببطء نحوي...

افتح أيها الأحمق..!.. افتح..!

خمس حشرات تزحف من أعلى باتجاه يدي الضاغطة على الجرس..

- (يوسف)!.. إفتح!.. أرجوك!

بعد ثوان كالدهر سمعت صوته المتشكك من خلف الباب:

- ماذا تريد؟.. قلت لك أن ترحل للجحيم!

هذا هو ما سيحدث لو لم تفتح!

لسان أحمر ثالث يلحق برفاقه.. هل أنا أحلم أم أن هذه الحشرات تهاجم بأسلوب (الميمنة - القلب - الميسرة) العسكري العتيد؟!

- (يوسف)!.. إنهم هنا..!

- هم؟..

- افتح الباب لترى!

سمعت - حامدًا الله - صوت المزلاج ينفتح، ثم لمحت وجهه الذي اسود ما أن رأى المشهد..، ومن فمه خرجت شهقة..

وقبل أن يغلق الباب لا شعوريًا.. بادرت بحشر جسدي في الفتحة الضيقة ثم جذبته خلفي.. وأغلقت الباب بإحكام...

- إذن لقد ضعنا!..

أخذ يرددها في هستيريا وقد تفككت صواميل جهازه العصبي تمامًا.. الدموع في عينيه واللعاب يتساقط من شدقه..

- ضعنا.. ضعنا!

- أشكرك على دقة معلوماتك..

- لا تحاول يا صديقي.. لا تحاول!

عليك اللعنة!.. لست في شوق للمزيد من التوتر.. إنني بحاجة للحظة تعقل واحدة منك كي أعرف...

- هل هناك تليفون هنا؟

هز رأسه يمينًا ويسارًا أن لا..

رفعت قدمي وشرعت أهوى بكعب الحذاء على الأرض محاولًا بدقات متوالية أن أنبه الجيران..، وبعد عشر دقائق نظر لي بوجهه المتراخي المستسلم متسائلًا عما أفعله بحق السماء.

- يا له من سؤال!.. أحاول لفت انتباه الجيران..

- لا تحاول.. لا أحد بالطابق السفلي.. كلهم في المصيف!

- إذن قضي علينا؟

- بالتأكيد...

لكني لم أستسلم.. أنا لا أخاف الموت لأنه كأس سنرشفها جميعًا، لكني أمقت أن أموت على صورة طعام في أحشاء هذه الحشرات القذرة وهذا من حقي فيما أظن..

شرعت أجوب الغرفة مفكرًا..

هذه الحشرات لا تتأثر بالنار ولا المبيدات الحشرية ولا يمكن سحقها بالحذاء.. إذن كيف؟... لا بد من وسيلة ما..

آه!.. الماء.. قوة الماء الجارفة التي لا تقاومها الحشرات..

هرعت للحمام.. فوجدت خرطومًا مطاطيًا طويلًا لحسن الحظ.. فقمت بتثبيته إلى فوهة الصنبور وفتحت هذا الأخير..

وقبل أن ينهي الماء رحلته الطويلة بالداخل ركضت إلى باب الشقة وفتحته بحذر وصحت في (يوسف):

- لا تتحرك.. ابق خلفي..

واعتصرت طرف الخرطوم بين أناملي لأزيد قوة اندفاع الماء..

ثم صوبته نحو البقع الحمراء..

وانطلق الماء يكتسح الأجساد البشعة التي لم تمت لكنها فقدت تماسك صفوفها، وبدأ طريق يولد ما بين هذه الصفوف..

كنت أضغط على أسناني محكمًا التصويب ومن حين لآخر أسقط بعض الحشود من على الجدران..

ببطء نتقدم.. ببطء شديد حذر..

و...

فجأة توقف اندفاع المياه من فوهة الخرطوم..

لقد انقطعت المياه في أتعس لحظة ممكنة!

❋ ❋ ❋

نظرت نحوه في حيرة.. إلا أنه فارقني وهرع لداخل الشقة.. ثم سمعت صوته يصرخ مفسرًا لي:

- لا شيء هنالك.. إن ضغط المياه أدى لانفصال الخرطوم من فوهة الصنبور..

- إذن أحسن تثبيته بيدك.. ولا تدعه ينفصل..

وعاد الماء يندفع وعدت أحاول تطهير المدخل إلى أن وصلت لدرجة معقولة من الفراغ تسمح لنا بالمرور دون خسائر..

- هلم يا (يوسف).. اترك الصنبور وتعال..

فلم يرد..

رفعت صوتي أكثر وأنا أرش الحائط طلبًا للإتقان:

- (يوسف).. أسرع قبل أن تلتئم صفوفهم..!

فلم أتلق - مرة أخرى - ردًا..

ركضت إلى الداخل بعد أن تركت الخرطوم على الدرج..

ودخلت الحمام فوجدت.....

لقد فات الأوان.. فات..

لم أدر - ولم يدر هو - أن الحشرات يمكنها الخروج من البالوعة كما تفعل الصراصير..، ولابد أنه كان غارقًا في محاولة تثبيت الصنبور فلم يدرك أن الحشرات قد هاجمت شقته على جبهتين كأي جيش منظم يحاصر مدينة..

من خلفه زحفت.. و..!...

لقد انتهى (يوسف) على يد ابنائه وبناته..، السلالة (إ-٦٠) التي تكاثرت وتمكنت من العثور عليه وجعله يدفع الثمن..

انتهى (يوسف) وجاء دوري..

جريت - كما تتوقعون يا رفاقٍ - إلى الباب والتقطت الخرطوم مواصلًا عملية الإخلاء..

من الغريب هنا أن الحشرات لم تبد متحمسة لمهاجمتي كأنها قد زهدت القتل، وكأنها جاءت في مهمة محددة وهذه المهمة قد انتهت..

وشرعت أثب درجات السلم..

إلى الشارع..

إلى سيارتي..

* * *

كانت ليلة كابوسية..

مئات الرجال يعملون في صبر...

علماء حشرات.. خبراء بيئة.. رجال شرطة.. مهندسون زراعيون..

وكانت الحقيقة المروعة التي لم يهضموها قط هي أن هذه الحشرات منيعة تمامًا..

ولم يجدوا وسيلة سوى جمعها يدويًا أو بالرفش وتكديسها في صناديق كما هي، واضطروا إلى تفكيك شبكة مجاري البناية كي يتأكدوا من أنهم لم ينسوا ذكرًا وأنثى في مكان ما..

أما عن الصناديق فقد دفنوها تحت عمق سحيق وأهالوا فوقها أطنانًا من التربة..
وأبتكر العلماء مركبًا سامًا لا بأس به طهروا به المنطقة وشبكة الصرف تحت الأرض.. وبالطبع شقة (يوسف) كلها..
لكن التعتيم الإعلامي كان كاملًا فلم يدر واحد من العامة بما حدث..
لقد عشت أهوالًا عديدة بعد هذا الحادث، وأزعم - دون ادعاء كبير - أنه لم يعد يزور كوابيسي وأنني تذكرت تفاصيله الأليمة هذه الليلة فقط استجابة لطلبكم..
إلا أنني ما زلت أجفل كلما سمعت صوت أزيز في مكان ما من شقتي.. وهو انعكاس شرطي له ما يبرره في الواقع

❋ ❋ ❋

إن من يبحث في مراجع علم الحشرات بدقة اليوم سيجد صورة تمثل حشرة ضخمة حمراء اللون لا توحي بالثقة..

وسيعرف أنها قد انقرضت تمامًا إلا من عينات محفوظة في بعض كليات العلوم بمصر..، وسيعرف أن اسمها اللاتيني هو (أنثروفاجا) ومعناه (آكلة البشر)..

أما الإسم الدارج لها - بعيدًا عن الرطانة - فسهل تذكره..

لقد أسماها العلماء المصريون بإسم..

حشرة الشيطان....

❋ ❋ ❋

- ١ -

أنهيت قصتي وتثاءبت.. فقد جاء دوري لأنعس بينما يحكى الأخرون قصصهم لجمهور وهمي...

قال (شكري) في جفاء وهو يتمطى:

- لا بأس بها.. لكنها بشعة أكثر منها مرعبة!

- وما الفارق...؟

القصة الرابعة



يحكيها: د. (سامي) وحرمه

- كالفارق بين سماع زئير الأسد ورؤية الأسد نفسه..!، في الحالة الأولى ينتابك الرعب.. أما في الحالة الثانية فتصدم..، وقصة الرعب الجيدة تفسح مجالًا للخيال لكنها لا تصدمك...، لا مجال في قصة الرعب الجيدة لوصف العيون المقلوعة والجثث النخرة و... و...، لكنها توحي لك بذلك..

قلت في غيظ مقاومًا رغبتي في اقتلاع عينيه:..

- تنسى أن هذا حدث لي فعلًا ولست، مسئولًا عن (الإحكام الأدبي) للأحداث..، لا يمكنك أن تقول أن (الثورة الفرنسية) ركيكة أو مفتعلة مثلًا..!

- على كل حال.. أعتقد أن أفضل قصص الليلة هي قصة د. (محمد شاهين) حتى الآن.. فهي تحمل جو التوتر والنذير الغامض وتحشد توترك.. ثم تفاجئك بأنك كنت مخدوعًا..

وهرش رأسه في إنهاك مستطردًا:

- ما دمت لم أحك قصتي بعد فإن قصصكم لديها فرصة.. والآن دعونا نسمع - أو بالأحرى نستمع إلى - قصة د. (سامي)...

تبادل د. (سامي) وزوجته النظرات ثم قال في رقة:

- حسن.. أعتقد أن مدام (سهام) قد أفسدت قصة المرآة التي كنت أدخرها

لكم..، لكن عندي لحسن الحظ قصة لا بأس بها، ويمكننا أن نتبادل سردها..
قالت مدام (ثريا) وهي تدعك عينيها الحمراوين:
- إحك أنت.. وسأصحح لك التفاصيل..

❋ ❋ ❋

قال د. (سامي):
- إن الخوف من المجهول. ومن الأشياء التي تحدث خلف ظهورنا - لخوف عتيد..، وفي حالتي كان كابوسي الخاص يتعلق بالأشياء المفزعة التي تحدث في دارنا بعد أن نتركها ونسافر..، لو أن عينًا سحرية وصفت لنا ما حدث في المكان الخالي.. فأي شيء سنراه؟..، كانت هذه الفكرة

تؤرق صباي وشبابي وواضح أنها ستؤرق شيخوختي..

* * *

هي هواية التصوير الفوتوغرافي التي بدأت كل هذا الفزع..

أرى وجوهكم تتساءل عن الكيفية التي يسبب بها التصوير الفوتوغرافي رعبًا لأحد..، انتظروا دقائق وستفهمون كل شيء..

كنت - في تلك الأيام من عام ١٩٦١ - فخورًا بآلة التصوير العاكسة التي ابتعتها من (الدانمارك)، وقضيت أوقاتًا لا بأس بها أجرب عدساتها وأصور عشرات التأثيرات الخاصة..

ثم بدأت ألتقط صورًا لنباتات الظل في داري...

كنت بحاجة ماسة إلى تعلم الصبر مع كائن ممل بطيء التغير كالنبات، خاصة حين تحاول الإحساس بنموه بشكل ملموس...

وتفتق ذهني عن وسيلة مشابهة لأسلوب (تسريع الزمن) المستعمل بكثرة في تصوير النباتات والزهور. في هذا الأسلوب يتم التقاط صورة للحدث المراد متابعته على فترات متباعدة.. صورة كل ثلاث ساعات.. أو صورة كل يوم..، المهم أن عرض هذه الكادرات يجري بسرعة أربعة وعشرين كادرًا في الثانية (حسب

أكثر آلات العرض شيوعًا) وهكذا يولد مشهد لم يوجد قط..

إنك بهذا الأسلوب تري غصون اللبلاب تزحف كالأفاعي متسلقة الجدران، والورود تفغر فاها كطيور وليدة، والأغصان ترقص مترنحة تجاه النور..، إنك تحصل على حياة محمومة أسرع إيقاعًا من حياتنا وأكثر إبهارًا..

لكني لم أكن أملك جهاز عرض سينمائي..

كل ما كان في جعبتي هو (فانوس سحري) متهالك، يمكنه أن يعرض الشرائح الشفافة على الحائط، وعن طريق سرعة تغيير الشريحة المعروضة أستطيع أن أخلق انطباعًا زائفًا بالحركة، وهي

بالطبع ليست حركة ناعمة كالتي نراها في السينما بل هي مجرد انتقالات عصبية خاطفة كأنها تجارب (لوميير) الأولى..

لكني كنت منبهرًا بالنتيجة..

وكانت نتائج تصوير شروق الشمس باهرة.. تخيل معي الأفق المظلم الذي يبدأ في التلون.. ثم يثب قرص الشمس في ثقة وسط اللون الأحمر كي يبعث الدفء والنور من حوله..

تخيل ما يمكن أن يحدث لو صورت النباتات بنفس الأسلوب...

لكنها تجربة قاسية:

ولسوف أحتاج إلى صورة في العاشرة صباحًا وصورة في العاشرة مساء كل يوم

لمدة أسبوعين حتى أحصل على نتيجة ما..، وأنا رجل مشغول.. مشغول..

ليس لدى ترف تكريس ليلي - إن لم يكن نهاري أيضًا - لهذا السخف حتى ولو كنت شغوفًا به..، خاصة و(ثريا) مصابة بفقدان ذاكرة مزمن يصعب معه أن تتذكر شيئًا كهذا..

لهذا ابتكرت جهازًا رائعًا..

هذا الجهاز هو نوع من الدائرة الكهربية التي تنغلق كلما لامست عقارب الساعة العاشرة صباحًا أو مساء..، ويتكون من منبه وعدة أسلاك وبطارية.. وقد أوصلتها بضاغط الكاميرا الذي يفتح الحاجب ويبدأ (الفلاش) في ذات اللحظة..

أما الكاميرا فوضعتها فوق حامل وأحكمت ضبط شباك رؤيتها على لقطة متوسطة لنباتاتي الجميلة، وكان موضع هذا الحامل هو في الصالة.. هنا.. قرب هذا المقعد.. هل ترون المكان جيدًا؟..

إن هذا الموضع يظهر أصص النباتات بوضوح، ويظهر كذلك مشهدًا خلفيًا عامًا للصالة كلها كما لا بد أنكم لاحظتم..

وما أن أحكمت إجراءاتي واطمأننت على كل شيء..

حتى بدأت التنفيذ..

ومن هنا تبدأ قصتنا..

❋ ❋ ❋

كانت التجربة مسلية..

وقد اعتدت و(ثريا) سماع الى (كليك) صباحًا ومساءً، فكانت تبتسم في إعجاب وأبتسم أنا في تواضع متظاهرًا أنني لست ذلك العبقري الذي تظنه...

إن آلية اختراعي تعمل بكفاءة تامة..

كنا - كما تعلمون جميعًا - كثيري الخروج لزيارة المعارف لأننا نحب الجو الاجتماعي أو - كما يقول د. (رفعت) - نعشق ثاني اوكسيد الكربون ونكره الاوكسجين..

لكننا كنا مطمئنين في كل مرة إلى أن الكاميرا تؤدي عملها كخير ما ينبغي..

كان عداد الكاميرا يدنو من الثلاثين لقطة، وكان الشغف يملؤني لرؤية النتيجة.. صحيح أنها لن تكون في إتقان آلات

التصوير السينمائي لكنها - على الأقل - ستخدم الغرض..

* * *

كنت أتردد على عيادتي بعد الظهر حيث أقضي ساعتين أو ثلاثًا مع مشاكل مرضاي...

وعلى النقيض من عيادات الأطباء النفسيين المزدحمة التي يستعملون فيها العقاقير ؛ فإن عيادة (المحلل النفسي) تعتمد على مريضين أو ثلاثة يأتي الواحد منهم ليرقد على أريكة مريحة ويثرثر عن نفسه، على حين يجلس المحلل عند رأس المريض واضعًا ساقًا على ساق يدون ما يقال في (بلوك نوت) صغير أو - إذا كان

متحذلقًا - يجلس جوار بكرة جهاز التسجيل الدائرة ويكتفي بالأسئلة..

إن أساليب التحليل النفسي معقدة وتحتاج لصبر لا ينتهي..، كما أنها تحتاج لطبيب لاه عن المادة غير متعطش للكسب.. بل للمعرفة..

ومع حديث المريض المسترسل.. او حكايته لأحلامه.. أو تداعى المعاني غير المقصود.. أو تفسيره لصور مشوهة يريها الطبيب له.. أو تحت تأثير التنويم المغناطيسي ؛ يبدأ المحلل يجد خيوطًا تقوده إلى جذور مريضه النفسية وتتجمع أجزاء الصورة..

هو - بلا جدال - فن معقد لكني أحبه..

وكانت الحالة الجديدة التي تؤرقني هي (سوزان)..، فتاة في الثلاثين من عمرها غير متزوجة وعلى قدر لا بأس به من الثراء والجمال..، كل شيء فيها كان أسود.. ثيابها.. شعرها.. عينيها، وكانت تسدل خصلات شعرها على جانب وجهها الأيمن إمعانًا في الغرابة..

هذه الفتاة - قلت لنفسي - ممن يعتقدن أن غموض المرأة (موضة) لها جاذبيتها، وغالبًا ما يتضح أن هذا الغموض يخفي تفاهة وسطحية لا مثيل لهما.. إن من قرأوا (النظارة السوداء) لـ (إحسان عبد القدوس) أو (أبو الهول الذي لا سر له) لـ (أوسكار وايلد) سيعرفون على الفور ما أعنيه..

المشكلة هي أن هؤلاء الفتيات - مدعيات الغموض - يكن دائمًا فريسة الشعور بالاضطهاد وأنه لا يوجد إنسان مرهف الحس بما يكفي كي يفهمهن..، وفي الغالب هي لم تأت للمحلل النفسي إلا لأنها (تراهن) يفعلن ذلك في السينما، ولان المحلل النفسي جزء من هالة الغموض التي تريد أن تخلقها حول ذاتها..

قلت هذا لنفسي في جزع..

وبدأت أتأهب لساعة من الملل والرغبة في طردها..

لكنها - إذ رقدت على الشيزلونج - بدأت تتكلم..، وكان ما قالته لي غريبًا إلى حد لا يصدق..

إسمها (سوزان) كما قلت لكم.. واسمحوا لي ألا أذكر باقي اسمها ولا مهنتها لأن الطبيب النفسي لا يحق له أبدًا أن يفشي أسرار مرضاه مقرونة بما يدل عليهم..

ومشكلتها كما قالت لي هي أنها..

-.. بلا مفر.. لا أجد مفرًا ولا مهربًا منها..

فكان طبيعيًا أن أسألها:

- ومن هي؟

- (لميس)..!



لكنها ــ إذا رقدت على الشيزلونج ــ بدأت تتكلم .. ، وكان ما
قالته لى غريبًا إلى حدّ لا يصدق ..

- هل هي عدوة قديمة لك أو شيء من هذا القبيل..؟

عابثت خصلات شعرها في توتر.. وهمست:

- بل أسوأ.. إنها أنا!...

- وهي تعيش داخلك؟

- بالفعل.. وتجبر جسدي على إطاعتها..

وأنا يا رفاق طبيب نفسي عتيد، شاب شعري في أروقة اللاوعي ودهاليز (الأنا العليا) وسراديب الـ (هي)..، وأزعم أنني رأيت وسمعت كل شيء.. من العجوز الذي تدعوه البعوضة لتحرير العالم إلى الفتاة التي تخشى أن تخنقها البراغيث في فراشها..

لهذا تبينت على الفور نغمة (الفصام) الشهيرة..، وهي موجودة - بدرجات متفاوتة - في كل منا بدءًا بتناقضات المزاج البسيطة وانتهاء بالصورة القصوى المريعة التي رسمها (ر. ل. ستيفنسون) في رائعته (د. جيكل ومستر هايد)..

إلا أنني تركت الفتاة تتكلم..

- أحيانًا أشعر بها تتحرك في أعماقي وتقول لي: أنا هنا أيتها الحمقاء!.. أنا حية أعرف خواطرك وأحلامك، وهذا الجسد لا يسع سوى واحدة منا.. ولن تكوني أنت هذه الواحدة، إنني أقوى شخصية منك وأذكى.. إنني أحصل على ما أريد ولا أرتجف خلف الأبواب الموصدة عاجزة

عن فتحها..، لهذا لا فرصة لك أيتها الحمقاء.. لا فرصة على الإطلاق..

توقفت عن الكتابة في مفكرتي.. وسألتها:

- وهل نجحت في الاستيلاء على جسدك تمامًا؟

لهثت وأرجعت رأسها للوراء وبللت شفتيها بلسانها:

- ليس بعد.. لكنني - حين يجن الليل - وأغرق في النعاس أعرف أنها استحوذت علي، أعرف أنني أغادر الفراش وأتسلل مغادرة الدار لأعيش حياتها الغامضة التي لا أدري شيئًا عنها، إلا أنني - في الصباح - أجد آثارًا كثيرة.. تذاكر قطار.. بطاقات.. خدوشًا في معصمي كأنني كنت

أجتاز دغلًا متشابك الأغصان.. جروحًا في أصابعي.. إلخ..

- ولم يحدث قط أن عدت للسيطرة اثناء ممارستها لحياتها..؟

اتسعت عينها اليسرى - غير المغطاة - رعبًا.. وهمست:

- مرات قليلة.. وكنت أجد نفسي في أماكن لا أعرفها.. أماكن غامضة مرعبة، لهذا كنت أفر من ذاتي فورًا وأترك (لميس) تتصرف، لأنها ما دامت وصلت لهذه الأماكن فهي تعرف كيف تخرج منها..

قلت بصوت رزين محاولًا تهدئة أعصابها:

- أماكن مرعبة.. هلا أوضحت أكثر..؟

نظرت لي حيث جلست عند رأسها أدون ما تقول.. وقالت:

- لا أدري.. مقابر وسط الشواهد الكئيبة.. زقاق خلفي مظلم تعوي فيه القطط السوداء في شراسة.. قفص الأسد في حديقة الحيوان وهو يرمقني في تكاسل متسائلًا عما إذا كنت أصلح للعشاء.. محرقة جثث في دولة أجنبية.. عشرات الأماكن..

مرة أخرى توقفت عن الكتابة:

- تعنين أنها ساقت جسدك لقفص الأسد؟

- بالضبط..

- لكننا متفقان على أنه لا يمكن لإنسان أن يدخل هناك، فضلًا عن أن يخرج.. ألا يعني هذا أن الأمر مجرد كابوس منك؟

صاحت في ضيق كأنما أذهلها غبائي:

- نعم.. أنت لا تعرف (لميس)..
- لكن.. هذا يعني أنها..
- نعم!.. هي شيطانة وأكثر.. بل هي تجيد اختراق الحوائط والسفر عبر المحيطات، كل هذا مستعملة جسدي الفاني الضعيف..!

....

حتى بعد كلماتها الأخيرة لم أشعر بلحظة دهشة..

إن القصة دائمًا هكذا..، ولقد سمعت أسوأ منها بكثير.. وتفسير العامة الجاهز لهذه القصص هو مس الجن..، أنا مؤمن بالجن طبعًا لكننا نعلق على شماعته كثيرًا من الاضطرابات النفسية التي يمكن علاجها، ومن الممكن أن تكون هذه الحالة واحدة منها...

أخذت أسألها عن بيئتها ونشأتها..
فشعرت بخيبة أمل..
إن (سوزان) شخصية إيجابية مثقفة بكل ما في الكلمة من معان.. ونشأتها لا غبار عليها، فلن أجد عقدًا ولا إحباطات في حياتها من أي نوع...، وحتى شماعة (الإحباط العاطفي) التي نعلق عليها المشاكل النفسية لا وجود لها هنا..
لأن الفتاة مخطوبة لشاب مهذب وسيم أعرفه جيدًا، وأعرف أن فتيات كثيرات كن يتمنين قطع ذراعهن من أجل الفوز به...
إذن ما هي المشكلة؟
ماهي جذور (الفصام) في شخصية كهذه..؟

إن المرض العقلي ليس عدوى وليس كارثة قدرية مفاجئة.. بل إن له أرضية ممهدة في شخصية نسميها - نحن أطباء النفس - باسم (شخصية ما قبل مرضية) - ثم تأتي الصدمة.. عندئذ يولد المرض النفسي الذي قد يأخذ صورة اختلال طفيف يعرفه المريض ويفهمه ويكافح للخلاص منه واسمه (عصاب).. أو اختلال خطير لا يعرفه المريض ولا يفهمه بل ويكافح كي يقنع الآخرين به.. وهذا الاختلال الأخير نسميه (دهان)...

وهي تسمية مهذبة لكلمة (جنون)7..

كانت (سوزان) شخصية قويمة تمامًا..، وكان الحديث معها لمدة ساعتين كافيًا

لإقناعي بسخف انطباعي الأول عن ادعائها الغموض...
وتدريجيًا بدأت أدرك أنها ستكون حالة مرهقة تتحدى ذكائي وخبراتي في عالم النفس..، لكنني - بالطبع - لم أصدق حرفًا مما تقول..
- لهذا أزمعت أن أحضر معي دليلًا..
قالتها وهي تعبث في حقيبتها باحثة عن شيء ما.. فسألتها:
- دليلًا على ماذا؟
- على أنني كنت هناك..
وأردفت مفسرة وهي تطبق يدها على ما كانت تبحث عنه:
- أمس استعدت سيطرتي على نفسي.. فوجدت أنني واقفة في قاعة مظلمة تملؤها

نباتات الظل.. ولم يكن هناك أحد..، كنت أدرك أنني سأتلاشى بعد ثوان لهذا أمسكت بأول شيء وجدته أمامي ودسسته في جيبي لأتأكد في الصباح من أنني لم أكن واهمة..

- منطق لا بأس به.. وما هو هذا الشيء..؟

فتحت كفها لتريني ذلك الشيء، فتجمد الدم في عروقي..

لم أستطع أن أصارحها أني - في هذه اللحظة - أدركت تمامًا إلى أي حد هي صادقة..

لا يوجد سوى منديل واحد في (مصر) كلها يشبه هذا الذي تمسكه..

منديل سماوي اللون تلوث بعصير المانجو وبه أثر حرق من سيجار مشتعل.. وعليه الحرفان الأولان من اسمي..
لأنه منديلي الذي نسيته في قاعة الجلوس أمس..!

❋ ❋ ❋

- ٢ -

توقف د. (سامي) عن الكلام وأخذ يتأمل وجوهنا في استمتاع إذ أثار شغفنا إلى حد كبير..

قال (شكري) وهو يرشف القهوة التي أعدتها له مدام (ثريا) كي يحتفظ بحيويته وتحفزه المزعجين:

- لا بأس بتاتًا.. لقد نجحت في بعث التوتر في عروقنا.. وأعتقد أن النعاس قد فر من عيون الكثيرين..

قلت أنا وقد بدأ وعي يتلاشى حتى أنني كنت أجد صعوبة في ترتيب أفكاري:

- هناك من تحدث عن تصوير النباتات.. من هو؟.. وماذا حدث في قصته هذه؟!..

ابتسم الجالسون في رقة.. وتبادلوا النظرات، ثم قال د. (محمد) وهو يربت على خدي:

- صح النوم!.. إن تصوير النباتات هو قصتنا الحالية هذه!

- حقًا؟.. و.... و... ماذا حدث فيها؟
- لم يحدث شيء بعد..
- إذن لماذا تحدث.. ما اسمه بالضبط؟.. د. (سامي).. نعم.. هو كذلك.. لماذا تحدث عنها؟
- هذا ما سنعرفه حالًا..
قال د. (سامي) في لهجة معتذرة:
- لم يكن هذا إطنابًا يا د. (رفعت).. صدقني.. فقط اصغ لباقي القصة..
- حسن.. حسن.. قل ما عندك...

* * *

تناسيت هذا الحادث الغريب..
ولم أشعر الفتاة بما يعتمل في ذهني من خواطر سوداء على أنني كنت أترقب اليوم

الموعود في شغف حقيقي..
لقد انتهى الفيلم الذي ظللت ألتقطه في صبر طيلة أسبوعين وثلاثة أيام وأمكنني أن أعيد تعبئته وإرساله للتحميض..
وبعد ثلاثة أيام وصلني مظروف به ستة وثلاثين كادرًا شفافًا، فقمت بترتيبها - بحسب رقم اللقطة - في منصة العرض الدائرية للفانوس السحري..
وناديت (ثريا) التي أعدت لي كوبًا من الليمون إمعانًا في الاستمتاع والتلذذ بالحدث الذي جعله خيالانا ديناصوريًا..
أطفأت النور وأضأت كشاف الجهاز فارتمت الصورة على الشاشة تظهر أكبر عدد من نباتاتنا الحبيبة..

وبدأت أتأمل الكادرات ببطء في البداية على أن أزيد سرعة التحريك فيما بعد حين أتأكد من جودتها جميعًا..
وكانت (ثريا) أول من لاحظ..
في الكادر السابع كان ثمة شيء غير مألوف..
ووجمنا ونحن نرمق ما نراه، عاجزين عن تفسيره...
- هو جزء من ساعد واصابع يد..
قالتها (ثريا) ووثبت إلى الشاشة لتشير بإصبعها شارحة وجهة نظرها، تلك الوجهة المعقولة إلى حد كبير..، فمن طرف الكادر الأيمن كان هناك شكل مبهم - لقربه من العدسة. لكنه يتشكل في صورة

ساعد ويد مفتوحة الأصابع.. إن هذا لغريب!

- هل هي يدك؟

- أنت تعرف أن هذا الركن محرم علينا منذ بدأت مشروعك..

- إذن يد من هي؟...

- يد شخص مر أمام الكاميرا في العاشرة من مساء اليوم الثالث...

- وهل هذا طبيعي؟.. لا يوجد سوانا في هذا البيت..

- استمر في العرض وسنرى..

وبدأت الكادرات تتوالى...

وفجأة - عند الكادر السابع عشر - لمحنا شيئًا آخر..

كان هناك كتف.. نعم كتف يدخل من إطار الكادر الأيسر.. وكالعادة بلا تفسير..

وتوالت الكادرات..

الكادر الحادي والعشرون كان يظهر شيئًا قريبًا من ظهر فتاة ترتدي ثيابًا سوداء تمامًا، أما الكادر الثلاثون فكان ظلامًا كله كان هناك من كان يقف أمام العدسة لحظتها..

ما معنى هذا؟

معناه أن هناك من يتسلل إلى دارنا..

وهذا التسلل حدث في العاشرة مساء من اليوم الثالث واليوم الثامن واليوم العاشر والخامس عشر.. من بدء التجربة..

- لقد خرجنا في اليوم الثالث لزيارة آل (محفوظ)..

- بل آل (منصور)...
وخرجنا في الأيام التالية جميعًا..
قالت (ثريا) وهي تتأمل إحدى الصور:
- معنى هذا أن هناك من كان ينتهز فرصة مغادرتنا للدار كي يدخلها..
شردت نظرتي وأنا أقلب في ذهني الاحتمالات:
- ولكن.. هل سُرق شيء من الفيللا؟.. لا أظن..
- لم يسرق شيء.. أنا واثقة..
عدت أفكر بصوت عال وأنا أرشف الليمون:
- إذن لماذا يتسلل أحد للفيللا؟.. ثم تخيلي أنك لصة - لا سمح الله - دخلت إلى دار غاب أهلها، ثم.. هوب... يسطع فلاش

الكاميرا وتعرفين أنهم أعدوا طريقة ما لالتقاط الصور أوتوماتيكيًا.. عندئذ ماذا تفعلين؟

- بالطبع أحاول تدمير الكاميرا أو الفيلم لأن عليه دليل تسللي، أو أفر من الدار ولا أعود لها أبدًا..

. لكن المتسلل لم يفعل هذا.. فما سر ذلك؟..

لم تجد إجابة..

وكذا أنا....

ظللنا صامتين نرمق الكادر شاردي الذهن..، ثمة خطر يتهددنا لكننا لا نعرف كنهه.. شرخ في جدار أمننا يتسع ببطء..

وبالطبع نسينا كل شيء عن تجربة النباتات!

* * *

لم يكن منطقيًا أن نبلغ الشرطة..
إذ لم يسرق شيء من الفيللا على الأقل في الوقت الحالي..
المنطقي هو أن نتأكد من غلق الأبواب والنوافذ بإحكام عند مغادرتنا لها، والمنطقي كذلك أن نعيد التجربة مع شيء من سعة الأفق..
أما المنطقي أكثر من كل هذا هو أن نخرج ثم نعود للفيللا في (كبسة) مفاجئة في العاشرة مساء..
ولقد نفذنا كل هذا بدقة تمامًا..
ونقلنا الكاميرا إلى ركن قصى من الصالة يتيح لها التقاط صورة شاملة لكل ما

يحدث، وبالتالي لن تحوي الصور القادمة أجزاء من فتيات غامضات بل الفتيات أنفسهن..!

وفي اليوم الأول تعمدنا الخروج محدثين أكبر ضجة ممكنة ليعرف من يراقبنا أننا خرجنا...

ولم نعد في العاشرة مساء لنترك فرصة أكبر للمتسلل..

أما في الأيام التالية فكنا نعود في أوقات مفاجئة، لكننا - كما هو واضح - لم نلق ما يريب..

وبعد خمسة أيام اخذت الفيلم لتحميضه، على صور هذه المرة وليس شرائح فانوس سحري.. وذلك لنسهل تداولها ودراستها..

فماذا - تتوقعون - كانت النتيجة؟..

نعم.. هو كذلك.. لم يظهر المتسلل سوى في الصورة الأولى..، أي أنه لم يأت سوى مرة واحدة أو هو توقع عودتنا في المرات التالية فلم يأت..

كانت الصورة مألوفة لي.. مألوفة تمامًا..

الغريب أنها كانت تقف في مواجهة الكاميرا في ثقة مزعجة، كانت تعرف أن صورتها تلتقط.. وتريد أن تظهر استهانتها بنا..

الثوب الأسود والشعر المنسدل يغطي نصف الوجه والوقفة الشامخة..

ألم تعرفوها بعد؟.. هل نسيتم قصة المنديل..؟

إنها (سوزان) طبعًا..

أم هل أقول.. (لميس)؟!

* * *

في هذه المرة قمت بإبلاغ الشرطة..

وكان ضابط البوليس هو (عادل)، ولعل هذا هو سر صداقتنا.. وأنتم لم تنسوا بعد استشارته لي في قضية المرآة المسحورة إياها..

وكان (عادل) نشيطًا.. بل جم النشاط..

خطته انقسمت إلى جزءين: الجزء الأول هو العثور على الفتاة ومواجهتها بصورتها.. وهذا سهل لأن لدي اسمها وعنوانها ورقم تليفونها..

الجزء الثاني: هو تدبير كمين لها في ليلة نغادر فيها الفيللا..

لكن الجزء الأول كان سلبيًا.. لأن الفتاة تعمدت إعطائي معلومات مزيفة عن بيئتها، وحتى خطيبها الذي كنت أعرفه لم يكن خطيبها ولم يرها في حياته.. هكذا أخبرني في النادي..

كانت تكذب بإحكام لتملك هي زمام المبادأة.. فلا تراني إلا حين تريد هي..**!**..

أما الجزء الثاني فلم يسفر عن شيء بعد أسبوعين من مراقبة الفيللا.. ولولا الصورة لاعتبرني (عادل) مخرفًا..

لقد ذابت الفتاة.. تبخرت...

- لكنها لم تؤذك ولم تسرقك**!**

قالها (عادل) مواسيًا.. فصرخت في حنق:

- وهل هذا سبب كاف كي أشعر بالسعادة إذ تدخل (الفيللا) كل ليلة لتفتشها ركنًا ركنًا؟!..

- ثم.. كيف تدخل؟

في حنق نظرت له.. وتنهدت هامسًا:

- أنت لا تعرف (لميس)!

* * *

وقضيت و(ثريا) أيامًا سوداء كقلب الكافر.. الشرخ في جدار أمننا صار أخدودًا.. ثم فالقًا جيولوجيًا يوشك أن يبتلع حياتنا كلها..

لو أخذنا بظاهر الأمور أيقنا أن الفتاة صادقة في كل حرف قالته لي، وهذه الـ (لميس) تأخذها - بعيدًا عن كل قوانين

الطبيعة - إلى أماكن غير عادية، ولم تكن الفتاة كاذبة حين وصفت لي قاعة الجلوس في الفيللا بدقة.. بل وكان معها دليل مادي لا يدحض..

ثم جاءت صور الكاميرا لتدعم القصة..

وهنا - يتساءل أحدكم - لماذا بيتي بالذات؟!

إن الإجابة غير مشجعة على الإطلاق..

متشبثين بحبال الطب النفسي إلى النهاية، فتذكر أن الشخصية الثانية في حالات (الفصام) تمقت المعالج بشدة باعتباره يحاول تدميرها لصالح الشخصية الأولى..

وهكذا يسهل معرفة سر زيارة (لميس) المتكررة لداري...

إنها - بدقة علمية - ترغب في الخلاص مني..
أو هي تدبر لي شيئًا ما سيكون وبالًا فوق رأسي..
والفالق يتسع أكثر...

* * *

وفي تلك الليلة..
كانت عقارب الساعة تدنو من العاشرة..
وكنت أنا مختبئًا خلف مقعد في قاعة الجلوس.. نعم... هو ذلك الكرسي الذي تجلس فوقه يا د. (رفعت)!.. هو ذاته..
كنت أنتظرها.. ولم أتوقع أنها ستأتي..
لكنها جاءت..

وفي ضوء القاعة الخافت لمحت ثوبها الأسود، ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها..، كانت تسير في تؤدة..
وانتصب شعر رأسي..

لم يعد هناك مجال للشك في حقيقة الأمر..، إن هذه الفتاة قد خرقت كل حواجز الطبيعة، واجتازت الأبواب المغلقة والنوافذ الموصدة لتكون هنا..
إنها (شيء) ولا يمكن ان تكون كائنًا بشريًا..



ووسط الصمت المطبق سمعت حفيف ثوبها وقرعات كعبيها ..،

كانت تسير فى تؤدة ..

وفي ذعر امتدت يدي إلى مفتاح النور فساد الضوء المكان.. رفعت وجهها نحوي في بطء.. وابتسمت ابتسامة غامضة..

كانت شاحبة... لكنها هي هي.. ذات الملامح والشعر المنسدل، لكن في ملامحها كانت هناك قسوة غير عادية..

- (سوزان)!

كذا ناديتها فلم يبد عليها أنها سمعت شيئًا..

- (لميس)!

بدأت تستجيب أخيرًا..، وفي برود - كلوح ثلج يتهشم - تساءلتُ:

- أنت؟

- بالطبع أنا..

ارتسمت ضحكة وحشية على ثغرها، وبدأت تسير نحوى في تؤدة..
- جئت أراك وأسألك.. لماذا تريد قتلي؟
- أنا؟.. ولماذا؟
- من أجل المخلوقة التافهة (سوزان).. أنظر!.. هي لا تخترق الجدران ولا تطير ولا تلتهم النيران.. أما أنا فأفعل..!
وتقلص وجهها وهي تواصل التقدم نحوي.. وأردفت:
- إنك قد اخترت المعسكر الخطأ..
ولمحت نصل سكين يلتمع في يدها.. أخرجته من حزامها الفضي..
- وعليك أن تدفع الثمن..!...
صحت وأنا أثب للوراء محاولًا أن أطيل اللحظة الفاصلة قدر الإمكان (وحتى لا

أستسلم للهلع):
- (لميس)!.. كفي عن هذه اللعبة!
- أية لعبة؟
- لعبة الجنون.. إنك ترين الكثير من الأفلام، وتعتقدين أن الفصام يزيد من غموض المرأة وسحرها..
وازددت تراجعًا للوراء محاذرًا أن أصطدم بقطع الأثاث:
- لكنك لن تخدعيني أبدًا..
همست بصوت كفحيح الأفعى وهي ترفع السكين:
- كنت أنتظر هذه اللحظة.. لكنى شئت أن أفزعك أولًا.. أن أتركك تتساءل عن كنه ضيفتك الغامضة أيامًا وأيامًا..

وانقضت على صارخة بالفرنسية (دون مبرر في الواقع):

- لقد انتهت الكوميديا!!

كانت قد صارت في النقطة المناسبة تمامًا..

وحين لمست الحبل، وانطلقت مجموعة الميكانزمات المعقدة التي أعددتها لها في صبر، وحين سقطت شبكة الصيد المعلقة بإحكام من السقف لتكبل حركتها.. كنت آمل ألا يكون الفكاك من الشباك جزءًا من مواهبها الخاصة...

أجل.. هي طريقة بدائية شبيهة بأساليب قبائل (الزولو) في صيد النمور لكنها كانت تعمل بكفاءة، ولقد قضيت أربع ساعات مع (ثريا) صبيحة اليوم نجرب إمكانات هذا

الاختراع.. ثم أننا تظاهرنا بالخروج بسيارتنا في التاسعة مساء توطئة لأن أعود أنا متسللًا أنتظر الزائرة..

الزائرة التي تتلوى في شباكها كالنمر دون أية مبالغة أدبية..

لو لم نكن في المدينة مكبلين بالقوانين لطعنتها برمح واسترحت بالًا..

لكني مرغم على طلب الشرطة للأسف وبسرعة قبل أن يتمكن هذا الوحش الكاسر من تمزيق سجنه بالسكين.. عندئذ لا يعلم سوى الله ما قد يحدث...

* * *

وجاء رجال الشرطة وحملوها - كالخنزير البري الهائج - إلى المكان

الأخير الباقي لها كي تذهب إليه..
وقالوا لي أنني نجوت بأعجوبة، وأن الزملاء في مستشفى الأمراض العقلية سيواصلون مسيرتي، وقالوا إنهم آسفون على عدم تصديقي في بدء الأمر لأنهم لم يملكوا خيطًا واحدًا يقودهم إليها..
قالوا هذا وسمعته..
لكني كنت أدرك أن المأساة لم تنته بعد، وأننا لم نصل للنهاية السعيدة المطلقة التي تختتم بها الأفلام السينمائية..
إن في القصة جانبًا غير مادي لم يتضح بعد..
إذ كيف دخلت هذه الشيطانة داري عشرات المرات؟!

* * *

ومرت الأيام في هدوء تام..
وكنت أتردد على عيادتي بانتظام كما هي العادة..
إلى أن جاء ذلك اليوم...
ذلك اليوم الذي فتح فيه الباب ولمحتها داخلة..!
كانت أسنانها النضيدة البيضاء تنفرج عن ابتسامة مشرقة معسولة، وكانت ترتدي ثيابًا زاهية اللون وقد عقصت شعرها..
أما أنا.. لا داعى لوصف ما حدث لي لحظتها..
لقد وثبت مترًا إلى الوراء ومترين لأعلى.. وقفز قلبي إلى حلقي كالبرغوث..

صحت في صوت مختنق:
- أنت؟
هزت رأسها يمينًا ويسارًا في مرح.. وهتفت:
- افتقدتني؟ كنت منشغلة إلى حد ما..
وجذبت كرسيًا.. وجلست عليه وقد وضعت حقيبتها على ساقيها كأن شيئًا لم يحدث، وكأنها بانتظار لحظة البدء..
- لـ.. لحظة من فضلك..!
وبيد مرتجفة مددت إصبعي لقرص التليفون وطلبت رقم مستشفى الأمراض العقلية.. ثوان ثم ردت ممرضة ملول فسألتها عن د. (صابر) صديقي..، وبعد دقائق سمعت صوته يتساءل عما هنالك..

خفضت صوتي إلى درجة الفحيح.. وهمست:
- د. (صابر).. هذا أنا.. (سامي).. نعم.. بخير.. بخير.. كلهم على ما يرام.. لا وقت للاجتماعيات أرجوك!.. قل لي.. متى خرجت تلك الفتاة من عندكم؟.. الفتاة المصابة بالفصام...
سمعت صوته المعدني من السماعة يهتف:
- من؟.. تعني (سوزان) أو (لميس)؟.. بالتأكيد هي ما زالت في ضيافتنا.. فمن قال أنها خرجت؟!
- مـ.. متأكد؟
ضحك لثوان ثم سمعت صوته الواثق يردد:

- طبعًا!.. بل إنها جالسة في مكتبي في هذه اللحظة.. هل تريد أن تحدثها؟.. هاك هي!.. د. (سامي) يريد أن يحييك يا (سوزان)!

رفعت عيني إلى الجالسة أمامي وكانت ترمقني بنظرة ثابتة فيها سخرية خفيفة، على حين سمعت الصوت المألوف في السماعة:

- د. (سامي)..!.. كيف حالك؟.. أريد أن أعتذر عن كل الإزعاج الذي سببته لك..!.. إنهم هنا طيبون حقًا وإنني لأتحسن باستمرار..

هيه!.. د. (سامي)..!.. لا تحقد علي.. لماذا لا تجيب؟!

في بطء أعدت السماعة لموضعها ورفعت عيني نحو الجالسة أمامي..
- ما بك يا د. (سامي)؟.. كأنك ترى شبحًا!
قالتها بنفس النظرة الغامضة الساخرة..
وهنا تصلب جسدي.. ووقفت ببطء شديد.. وبصوت لم أعرف أنه صوتي سألتها:
- من أنت؟
- هل تمزح؟
- بل.. ما أنت؟!
- ياله من سؤال!.. أنا (سوزان) بالطبع..
- إذن من هي نزيلة المستشفى؟
قالت في بساطة وهي تنقل ساقًا فوق ساق:

- وهل هناك نزيلة في المستشفى؟
كنت قد انتهيت تمامًا.. ولم أدر تمامًا حقيقة ذلك الذي أفعله، لكني كنت أضرب المكتب بقبضتي.. وأصرخ في هستيريا:
- إسمعيني أيتها الفتاة!.. أنا لن أتحمل أكثر!.. ابحثي عن أحمق آخر تتسلين عليه بألاعيبك.. أما أنا فقد انتهيت تمامًا..
وكانت هي محافظة طيلة الوقت على وقار جلستها.. مكتفية بأن تطقطق بشفتيها في تصعب مرددة عبارات من نوع:
- كذا؟.. حقًا؟.. يا للخسارة!..
وكنت قد وصلت للنهاية فأرجعت ظهري للوراء وغطيت وجهي بكفي.. ولذت بالصمت..
ساد السكون الثقيل اللزج بضع دقائق..

ثم إنني رفعت وجهي نحوها.. وهمست:
- اذهبي!.. أنا لن أستطيع معاونتك!
- ولكن...
- اذهبي عليك اللعنة!!
نظرت لي لحظة ثم أنها جمعت حقيبتها واتجهت للباب في تؤدة وكبرياء..، وعلى الباب استدارت ونظرت لي نظرة خاوية من المعنى ثم أغلقته وراءها...

* * *

في الصباح التالي على مائدة الإفطار بدأت أشعر بالتحسن..
كأن حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهلي..
وهنا سمعت زوجتي تقول وهي تضع الصحيفة أمامي:

- هل قرأت هذا الخبر..؟..

توقفت عن المضغ وأنا ألمح صورة (سوزان) في ركن الخبر العلوي..

ولم تكن عيناها مفتوحتين بل مغلقتين.. وخصلات شعرها الأسود كالمبتلة تغطي أكثر وجهها.. كانت ميتة.. ميتة جدًا..!

وبيدين مرتجفتين وعينين زائغتين عرفت أنها وجدت غريقة في النيل وأنهم لم يعرفوا من هي قط....

أنا فقط كنت أعرف...

أنا الذي بادرت بالاتصال بالمستشفى سائلًا عنها، والجواب - كما توقعت - هو أنها اختفت أمس في السابعة مساء..

زنزانتها أو حجرتها - كما قالوا - كانت محكمة الغلق لكنهم لم يجدوها بالداخل،

وفتشوا كل مكان دون جدوى..
لكنهم لم يعلموا أنها في أعماق النيل في تلك اللحظات.

* * *

وتبقى أسئلة بلا جواب...
هل انتحرت (سوزان) لتستريح من المس الشيطاني الذي أصابها، والذي لم يعد لدي شك في وجوده؟..
أم أن (لميس) حاولت أن تسبح بهذا الجسد الذي لا يجيد السباحة في مغامرة طائشة أخرى من مغامراتها..؟
ومن هي التي جاءتني بالأمس؟..
هل هي (سوزان) أم (لميس)؟.. ومن هي التي كانت في المستشفى؟.. وكيف وصل

الفصام إلى درجة انقسام الجسد المادي ذاته؟!..

إن رأسي ينفجر..

بل - الأدهى - هل هلكت فعلًا أم أنها حاولت إقناعها بذلك؟.. التفسير الوحيد لكل هذا هو المس الشيطاني - نعوذ بالله من الشيطان الرجيم - الذي أصاب تلك الفتاة، وبالتالي خرج الأمر من دائرة المنطق والماديات إلى آفاق ما وراء الطبيعة..

ولا داعي للقول أن الكابوس سيعيش حيًا فينا ما حيينا..

وأنني - حتى اليوم - أترك الكاميرا من حين لآخر كي تلتقط صورة تلقائية للقاعة عند خروجنا، فقط لأتأكد من أنها لم تعد..

❋ ❋ ❋

لقد ظنت البائسة أن شفاء المريض من جرثومة الدرن لا يكون إلا بقتله!، ربما كان هذا سخفًا.. وربما كان جنونًا.. لكني لا ألومها كثيرًا.. لقد كانت مريضة.. وطلبت العلاج.. لكن الطبيب لم يدر كيف يتصرف...

نسيت أن أقول لكم شيئًا أخيرًا..

إن الصور التي التقطناها لها قد مرت بنوع غريب من التحلل العضوي فلم يعد لها أثر..

لقد رحلت الزائرة بعيدًا حاملة كل ما قد يذكرنا بها..!..

❋ ❋ ❋

- ١ -

الساعة تدنو من الرابعة صباحًا... لقد انتهت بالفعل أية فكرة للعودة إلى ديارنا (هذه الليلة)..

لا أدري متى ولا كيف انتهت لكننا فجأة أدركنا حقيقة أننا (غدًا) ..!

قال (شكري) في عصبية قاذفًا بعقب سيجارته إلى الأرض (ثم تذكر أنه ليس

القصة الخامسة



تحكيها : (هويدا)

في داره فالتقطه ودفنه في المطفأة):
- أنا أمقت النهايات المفتوحة!
قلت وأنا أتثاءب:
- وأنا أحبها!..
- أحب وضع النقط فوق الحروف.. من فعل ماذا ولأي غرض؟..
هذه هي ميزة القصة.. أن تضعك في وضع المراقب اليقظ العليم.. فإذا لم تحقق لك هذا فما جدواها إذن؟.. وما الذي يميزها عن الحياة؟!
قال د. (سامي) في بساطة:
- أنت مُصر يا أستاذ (شكري) على اعتبار قصصنا مؤلفة.. ولكن هذا هو ما حدث بالضبط.. يمكنك أن تحبه أو لا تحبه لكنه حدث!...

وكما قال د. (رفعت) لا يمكنك أن تتهم الثورة الفرنسية مثلًا أنها ركيكة!

هرش (شكري) لحيته في ضيق.. وغمغم:

- كنت أصبو إلى اتضاح الأمور و..!..

وهنا سبحت الغرفة في الضوء الأبيض الخاطف الجزء من الثانية.. وثبنا كالملسوعين من مقاعدنا ونحن بعد لم نعرف ما الذي نعتقده.. لكن د. (سامي) رفع كفه في تؤدة وهتف:

- إنه ميعاد التصوير الجديد!.. هل نسيتم؟.. لقد أعددت لكم مفاجأة صغيرة لأختبر أعصابكم بعد قصتي..!..

وهنا برزت مدام (ثريا) من خلف الستار حاملة الكاميرا وفوقها الفلاش.. وكانت

تضحك في تشف حقيقي...

- يا لها من فكرة!

- إذا كان المطلوب هو الرعب في حد ذاته.. فلا تنكروا أنني قد وفقت إلى حد كبير..!.. لقد وثبتم من مقاعدكم ككرات البنج بونج!

قالت (هويدا) وهي تتنهد وتستريح في جلستها:

- لقد صارت أعصابي كالزنبرك المشدود.. وسأنفجر صارخة في وجه أي شخص في أية لحظة!

أشرت لها.. وابتسمت:

- لقد جاء دورك في الإرعاب بعد الارتعاب..

نظرت للسقف في حيرة وخجل.. ثم غمغمت:

- دوري أنا؟

- طبعًا..

- قصة مرعبة؟

- نعم.. ولكن لا تحكي قصة المرآة لأن (سهام) حكتها.. ولا تحكي قصة الفرعون (أخيروم) لأنني حكيتها للقراء..

قالت وهي تحملق في السجادة معابثة نقوشها بطرف حذائها:

- إن هذا صعب.. ولكن.. مهلًا.. عندي قصة أعتقد أنها ستشد اهتمامكم إلى حد ما..، أنت تعرفين (ميمي) صديقتي يا (سهام) وتعرفين مشاكلها بعد سفر زوجها

(بلبل) للخارج تاركًا إياها وحيدة مع (مشمش).. إن (ميمي).....

قاطعتها في كياسة:

- أ... (هويدا).. هل يضايقك كثيرًا ذكر الأسماء الكاملة بدلًا من أسماء التدليل المستفزة هذه؟!.. سيكون صعبًا علي أن أتذكر من هو (بلبل) و(مشمش) و(ميمي)..

نظرت لي في ضيق.. وهزت رأسها مستسلمة:

- ليكن.. ولكن لا تقاطعني ثانية..!...

* * *

قالت (هويدا):

- أنا أمقت الأطفال...، أعرف أنه من العار أن تعترف امرأة بذلك.. لكنكم لستم أغرابًا..، نعم أنا أمقت الأطفال خاصة حين يصلون إلى السن الكريهة التي يمكنهم فيها جذب ذيول القطط وكسر المزهريات الثمينة.. السن التي تتلوث فيها أنوفهم بالمخاط وركباتهم بالميركيروكروم ويصدرون أصواتًا سخيفة عند اللعب..!
أمقتهم.. ولم أكن متجنية تمامًا في ذلك...

❋ ❋ ❋

- (هويدا).. لقد توفيت خالتي!
قالتها وانفجرت في البكاء..
- (مها)!.. لا عليك يا حبيبتي.. كلنا سنشرب ذلك الـ........ إلخ.. إلخ...

شرعت أواسيها عبر سماعة الهاتف لكنها - بالطبع - لم تصغ لحرف من كلامي..
ثم إنها استنشقت دموعها.. وهتفت عبر السماعة:
- (هويدا).. لقد جاءني الخبر من (كفر الزيات) منذ دقائق.. وعلي أن أذهب هناك الآن..
كانت (مها) تعيش وحدها في (الإسكندرية) بعيدًا عن عائلتها التي احتشدت كلها في (كفر الزيات)، وكان زوجها قد سافر للخارج لكنها لم تستطع ترك الدار والإقامة في مسقط رأسها.. وذلك لظروف العمل ومدرسة (مجدي) ابنها الوحيد..

وكنت أعرف ما ستطلبه بالتأكيد لأن امتحانات ابنها تبدأ بعد غد، ولا يمكنها إضاعة وقته بالسفر معها.. ولا يمكنها ألا تسافر.. من ثم...

- أريدك أن تعني بـ (مجدي) حتى أعود..

- لا مانع..

قلتها بصوت مبحوح لأنني - كما قلت لكم - أمقت الأطفال، لكن نداء الواجب لا يعرف الميول الشخصية..

لهذا أردفت في استسلام:

- هل تحضرينه لي أم آتي لأخذه؟!

- لا يا حبيبتي.. أريدك ان تأتي لتمضي الوقت معه هنا..

لأنه - كما قالت لي- لن يستطيع أن يركز أفكاره في بيئة مغايرة - وربما معادية -

مثل بيتي.. وقد أثار هذا حنقي.. إن هذا (المفعوص) في السنة الثالثة الابتدائية فأي شيء ستفعل وتقول حين يصير في الثانوية العامة!!

- ولكني لن أترك أمي..

- لن أتأخر يا (هويدا).. أقسم لك.. سأعود مع الليل.. وعندئذ تعودين مشكورة لدارك، على أنني سأطلب منك ذات الشيء غدًا..

- فليكن...

إن بضع ساعات لن تضر أحدًا خاصة ودارها قريبة من داري ولن يكون الانصراف مشكلة..

وهكذا.. ذهبت لأعمل (جليسة أطفال) دون أجر..

* * *

ما أن دخلت من الباب حتى ارتمت (مها) في أحضاني دامعة العينين ذابلتهما..، وأخذت تتنهنه وتمخط على كتف ثوبي الجديد وأنا أردد عبارات من نوع (كلنا سنموت، استراحت المسكينة، البركة فيك)..

حتى غلبني البكاء فشرعت أبكي معها..

ثم أنها أغلقت أزرار ثوبها الأسود وقادتني إلى الداخل..

وكان طفلها (مجدي) واقفًا يرمقني ممسكًا بقط أبيض ضخم..

(مجدي) الذي طالما وصفته امه بأنه يملك من الذكاء ما يفوق سنه بمراحل

وبشهادة كل المربين الذين صادفوه..

وحين رأيته عرفت أنه هو..!
ذلك الطراز المزعج من الأطفال الوقحين المدللين المدمرين الصاخبين المتوحشين المخربين القذرين الكذوبين الـ...... كل الصفات القاتلة التي يمكنني تعدادها إلى يوم الدين..!
لقد وقعت في الشرك ولا حول ولا قوة إلا بالله..



وكان طفلها (مجدى) واقفًا يرمقنى ممسكًا بقط أبيض ضخم ..

كانت (مها) تهرول بفردة حذاء واحدة هنا وهناك شارحة لي (طقوس) دارها.. وإلى المطبخ قادتني وأشارت إلى الموقد:

- هاك.. أرز وبطاطس أعددتهما له على عجل.. إذا جاع مساء يمكنك أن تطعميه... و....

وهرعت إلى الثلاجة وفتحتها وهي ترتدي فردة الحذاء الأخرى:.

- هاك.. مياه غازية وآيس كريم.. في الثامنة مساء بعد أن يتناول عشاءه... و....

ثم التقطت حقيبتها وهرعت إلى الباب.. وهتفت قبل أن تخرج:

- خذي الحذر.. ولا تدعيه يشنق القطة فهو يحاول ذلك من شهور..!

- يشنق ماذا؟!!

- القطة.. ولا تدعيه طبعًا يأكل الصبار الموجود في الشرفة..!

ثم أنها عانقتني.. وانفجرت باكية:

- آه!.. يا خالتي الحبيبة!

ودعتها على السلم وأنا لا أرى شيئًا من الدموع أنا الأخرى..

ثم عدت لأبدأ مهمتي المستحيلة..

❋ ❋ ❋

كان واقفًا في الصالة كما تركناه واضعًا يده في جيبه وبيده الأخرى يمسك بالقطة.. وكانت عيناه وقحتين شرستين إلى أقصى حد..

قلت له في حزم وأنا أشير إلى غرفته:

- والآن يا (مجدي) اترك القطة وابدأ المذاكرة..
لم يبد علامة توحى بسماع ما قلت.. وفي برود سأل:
- أنت المربية الجديدة..؟
- أنا صديقة أمك..
- وستعنين بي؟
-.. وأجبرك على المذاكرة كذلك..
- وكم دفعت لك أمي؟!
صعد الدم إلى رأسي.. وصحت به:
- كف عن الوقاحة وادخل غرفتك..!
لثوان التقت عينانا وتصادمت الإرادتان.. ثم خضع أخيرًا وألقى بالقط على الأرض وهتف وهو يهز كتفه:
- لقد ذاكرت بما يكفي..

- إذن زد على ما يكفي..
نظر في عيني.. وابتسم - أوقح ابتسامة رأيتها في حياتي - وغمغم:
- ألا تخافين من (العاوّ)؟
- (عاوّ)؟!
وهنا تذكرت تلك اللفظة السخيفة من أيام طفولتي..
(العاوّ) هو غول عملاق أو شيطان هائل أو جني جبار أو كلب ضخم أو - باختصار - هو كل ما يخيف الأطفال، إن هذه الكلمة تلخص في براعة مئات الكائنات الشيطانية، ومهمة (العاوّ) - كما تراها الأمهات - تتلخص في التهام الأطفال الأشقياء..

أنا أيضا كنت أخاف (العاوّ) ولكن كان ذلك منذ دهر..

يا لذكريات الطفولة ويا لمخاوفها..!..

لقد كان (العاوّ) متعدد النشاطات.. فهو يلتهم الفتيات الصغيرات اللواتي تتسخ ثيابهن، أو يهملن وضع الشريط ليعقصن شعورهن، أو يضعن إصبعًا في أنفهن، أو يكذبن، أو يضربن الأولاد... أو... أو...

كانت النجاة من (العاوّ) ضربًا من المستحيلات..

لكنني نجوت.. نجوت...

واليوم أنا شابة ناضجة في الثلا... آ.. في الخامسة والعشرين من عمري ولن يستطيع أي (عاوّ) أن يلتهمني دون مسائلة قانونية..

- ألا تخافين من (العاوّ)؟
كان السؤال معلقًا بعد..، وكان ينتظر إجابة..
- أنا لا أخاف (العاوّ) لأنه لا يلتهم سوى أمثالك..
انفجر يضحك..
ضحكة غريبة عصبية لم تكن متوقعة من طفل.. وسمعته يهتف:
- إذن.. هل يضايقك أن تعرفي أن (العاوّ) هو أنا؟
- حقًا؟.. سيغمى على..
- تظنين أنني أمزح..
- اسمع أيها القرد الصغير.. لن أسمع كلمة أخرى..
ابتسم في ثقة..

ثم اتجه إلى حجرته متبخترًا بشكل مبتذل..

سيكون من الصعب علي ألا أقتله في الساعات التالية..

* * *

أمضيت ساعة كاملة أستمع للراديو وأتصفح المجلات النسائية التي وجدتها على الأريكة.. كانت (مها) قد أخرجت بعض (الباترونات) وأعدت مقصًا وقماشًا حين جاءها النبأ المشئوم كما هو واضح..

وهنا شعرت بتأنيب ضمير..

لماذا جئت من داري إذن ما دمت سأكتفي بسجن هذا الطفل؟.. وأية رعاية أقدمها له بجلوسي هنا..؟

نهضت في تثاقل إلى غرفته وفتحت الباب..

- (مشمش)..!.. هل تبغي شيئًا؟..

ودلفت إلى الحجرة فلم أجده..

كانت الغرفة خاوية تمامًا.. غرفة طفل أنيقة ومهندمة لكن الحوائط كانت مزدانة بصور شيطانية لوحوش ومصاصي دماء إلخ.. صور تم قصها من المجلات وإلصاقها على الحائط..

ويا له من مزاج لطفل في التاسعة من العمر..!

كانت الستارة تتطاير عبر باب الشرفة المفتوح إلى داخل الحجرة.. وكانت رائحة الليل العطرة تملأ هواءها.. الليل الوليد البكر..

جريت إلى الشرفة لأبحث عنه فلم أجده!..
طار صوابي رعبًا وانحنيت على سور الشرفة باحثة عن جثة صبي في التاسعة من عمره مهشمة على الأسفلت فلم أجد واحدة.. و...
كرانك!..
نظرت للخلف فأدركت أن باب الشرفة قد أغلق دوني!..
لقد فعلها الشيطان!.. ولابد أنه اختبأ تحت الفراش بعد ما فتح باب الشرفة ليغريني بدخولها..، وما إن دخلت حتى فعلها!
والآن أنا في مأزق!.. لن يفتح لي وسيخرب في البيت كما يشاء حتى تعود (مها).. يمكنني أن أصرخ وأقرع الباب

مرارًا لكن كل هذا سيبوء بالفشل فهو يعرف ما سيحدث له لو فتح الباب!..

ماذا أفعل إذن؟..

ظللت ربع ساعة أرمق الناس من الشرفة عاصرة ذهني بحثًا عن حل ملائم فلم أجد..

ثم إنني نظرت إلى الباب من فوق كتفي فرأيت الباب مفتوحًا..!

إذن لقد عاد وفتحه لي بعد أن أرعبني قليلًا..

إن هناك - برغم كل شيء - بعض الآدمية في هذا الطفل..

لن يكون عقابه أسطوريًا كما أزمعت..

وفي تؤدة دخلت الحجرة..

كان جالسًا على مكتبه منهمكًا في الدراسة..
في يده قلم رصاص وأمامه كتاب مفتوح به بعض مسائل الكسور..، وحين رآني ابتسم في رقة.. وهتف:
- أنت في الشرفة يا طانط (هويدا)؟!
صعد الدم إلى رأسي، وصحت مقلدة لهجته:
- يا سلام... في الشرفة يا طانط (هويدا)!.. يا للأدب والرقة!...
ومن تظنه حبسني بالداخل أيها القرد الصغير؟!
بدت عليه دهشة حقيقية:
- هل كنت محبوسة؟.. لماذا لم تناديني؟!

شعرت بأنني سأصاب بجلطة مخية من الغيظ.. فاكتفيت بأن اقتربت منه واعتصرت أذنه في غل:

- اسمع يا فتى!.. لو حدث هذا ثانية فلن تجد أمك بقايا تدفنها!

قال متأوهًا وهو يضغط على أسنانه:

- أنت.. آه!.. شرسة الطباع...

بعد ثوان بدأ غضبي يتلاشى.. فاختلست نظرة إلى كتابه وأطلقت سراح أذنه..، إنه لا يجيد الحساب أيضًا.. الطفل الذي يعتقد أن ثمانية في تسعة تساوي أربعين هو طفل في مأزق دراسي..!..

- ألا تعرف جدول الضرب؟

رفع رأسه نحوي ممسكًا بأذنه اليسرى الحمراء كالدم.. وفي تؤدة غمغم:

- كلنا لا نعرف جدول الضرب!
- ومن انتم؟
- نحن مصاصو الدماء!
ثم ضحك ضحكته الغريبة الساخرة..

* * *

بعد نصف ساعة ذهبت لغرفته، ووقفت على الباب سائلة:
- هل تريد أن تأكل الآن؟
رفع رأسه نحوى وهرش في رأسه:
- ماذا أكل؟
- أرزًا وبطاطس...
باشمئزاز مط شفته السفلي وتثاءب:
- لا أريد...
- لابد أن تتعشى..

- ولماذا يأكل (العاوّ) أرزًا وبطاطس ما دمت أنت موجودة؟!

* * *

بعد قليل خرج للصالة حيث كنت جالسة، وشرع يدور حولي كأنما يريد شيئًا فسألته وأنا أتصفح المجلة دون أن أرفع عيني:

- جعت؟

- نعم.. ولكن ليس للبطاطس!

ووقف أمامي يتأملني بعض الوقت، فتظاهرت أنني لا أعبأ حتى بسؤاله عما يريد.. إن هذا الطفل قد بدأ يثير أعصابي إلى حد غير معقول لكنني لن أدعه يشعر بذلك..، قال وهو مستمر في تأملي:

- إن أمي أكثر أناقة وجمالًا منك!

- شكرًا.. أعرف ذلك..
- وأنفها أصغر..
- لم أطالبك بالزواج منى...
ثم إننى تمالكت أعصابي، ونظرت له في برود:
- هل ستأكل أم لا..؟
- هل يمكنني شرب بعض المياه الغازية؟..
- لا بأس.. ولكن القليل منها جدًا...
جرى إلى المطبخ وسمعت صوت فتح الثلاجة، ثم صوت صب سائل فوار.. وبعد ثوان جاءني حاملًا كوبًا به قليل من السائل الأسود الرغوي وقدمه لي، وفي رقة وكياسة طلب مني أن أشربه كعربون صداقة لأنه يشعر أنني لم أرتح له كثيرًا..

بدأت أشرب في شك متوقعة شركًا آخر لكن المشروب كان لذيذًا منعشًا وشعرت أن حقدي يذوب تدريجيًا..، أما هو فجلس على الأرض عند قدمي يداعب القط البدين في فظاظة..

دقائق ثم قال لي دون أن ينظر نحوي:

- كانت عندنا مربية قبلك..

- قلت لك إنني صديقة (ماما) ولست مربية..

هز رأسه في تؤدة بمعنى أن هذا ليس خطئًا جوهريًا.. واستطرد:

- كانت سيدة طيبة.. لكنها مرضت مرضًا شديدًا..

- إن مربيتك لابد أن تصاب بالسرطان والسكر وارتفاع ضغط الدم..

- كان لونها يبهت.. ويبهت.. كل يوم.. حتى صارت صفراء كالبرتقالة..، وخف وزنها وظهرت عظامها..

- وهل جاء لها الطبيب؟

- نعم.. نعم.. وقال إنها مصابة بالـ.. باللامينا..

- تعنى.. أنيميا؟

- ربما كان ذلك.. ولم يعرف أحد السبب.. ثم تركتنا.. وتقول (ماما) إنها ماتت في المستشفى..

تنهدت في صبر.. وهمست وقد تذكرت ما حكته لي (مها) عن هذه القصة الأليمة:

- رحم الله الجميع..

- لكنهم لم يعرفوا أو نسوا حقيقة هامة.. هذه المرأة كانت تنام جواري في الفراش

كل ليلة..!.. وهذا هو خطأ الكبار.. إنهم لا يصدقون الصغار أبدًا مهما حدث.. ولطالما أنذرتهم!

لم أفهم ما يعنيه فنظرت له متسائلة..

ازدادت بسمته الوقحة اتساعًا.. ثم قال من بين أسنانه:

- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه..؟!

واتسع ثغره أكثر وأكثر.. وأردف:

- وحيدة مع (العاوّ) في شقة موصدة بالمفتاح!!

* * *

- ٢ -

- موصدة؟.. ماذا تعنى بموصدة؟
- أنا أغلقتها بالمفتاح من الداخل!

قالها في فخر وهو يثب للخلف مبتعدًا عن منالي..، في حين صحت في ذهول:

- ولكن.. لماذا؟.. وأين المفتاح؟
- أخفيته!

نهضت نحوه في شراسة عازمة أن أرتكب أولى جرائم القتل في حياتي..

لابد أن السفاحين جميعًا يبدءون هكذا..، لكنه تملص من يدي وشرع يقهقه ويصفق..

- لن أخبرك مهما فعلت بي...
ثم إنه جرى للمطبخ فهرعت خلفه لأرى ما سيفعل..
كان عائدًا من هناك حاملًا علبة دواء صغيرة يبدو أنها فارغة، وما أن رآني حتى وثب جانبًا رافعًا العلبة في يده.. وعلى الغلاف قرأت كلمة (ميبروباميت)، وهذه الكلمة مألوفة لي لأنها الدواء المنوم الذي كنت أعالج به بعد الانهيار العصبي الذي تلا انفصالي عن (ها....) أعني بعد أرق مستمر عانيت منه..
ولكن ما معنى هذا؟
- معناه يا طانط (هويدا) أنك شربت عشرة من هذه الأقراص في كوب المياه الغازية!!

- أيها الشيطان الصغير!.. ولكن لماذا؟
صاح في براءة كأنما أهنت طفولته:
- وكيف أمتص دماءك - أنا (العاوّ) - ما لم تنامي؟
إن هذا الطفل مجنون أو ممسوس.. ليست هذه تصرفات أطفال أبدًا.. هل حقًا شربت هذا المنوم؟.. إذن سيكون أمامي ربع ساعة قبل أن أدخل غيبوبة عميقة لأن هذه الجرعة سامة بالتأكيد..، والواقع أنني بدأت أشعر بليونة في ساقي ودوار في رأسي وثقل في جفني..
- (مجدي)!.. هات المفتاح فورًا!
- مستحيل..!؟
صحت في هستيريا:
- ولكن لماذا تفعل ذلك؟

- لأنني (العاوّ)!
ثم أردف وهو يتواثب حولي كالضفدع:
- هل سمعت عن (الثاليدوميد)؟
تصلب جسدي إذ سمعت هذه الكلمة..
لم أتصور قط أن يعرف طفل في التاسعة من عمره معناها أو نطقها..
ولقد أعادت لي ذكرى ذلك العقار المشئوم الذي أنتجته إحدى شركات الأدوية في أوائل الستينات كمسكن للحوامل، وكانت نتيجته كارثة.. لقد ولد جيل كامل من الأطفال بلا أطراف وكانت مصيبة في العالم وأفلست الشركة وتم وقف إنتاج العقار[8]..
ولكن ما دخل هذا العقار فيما يحدث؟...

قال مفسرًا وهو يلهث من جراء مراوغتي:

- أنا من أطفال (الثاليدوميد).. أحضره أبي من الخارج لوالدتي، وجئت أنا للكون بكامل أطرافي..، إلا أن العقار كان له أثر غير متوقع في وظائفي الحيوية.. ولم يشعر (بابا) أو (ماما) بالفارق لأنني أجدت إخفاءه!

ثم اقترب مني خطوة والتمعت عيناه:

- لا أستطيع الحياة دون دم!.. ومشكلتي هي العثور عليه.. في البدء كانت المربيات وأصدقائي في المدرسة لكنها كانت كميات محدودة، أما اليوم فقد سنحت لي الفرصة كاملة لإرواء ظمئي..!!

تراجعت للوراء على الرغم منى بضع خطوات.. وصحت:

- كف عن خداعي!!

ابتسم في ثقة.. وسألني:

- بصراحة.. هل رأيت طفلًا في سني يتحدث ويتصرف مثلي؟

- بصراحة.. لا..!

- إذن صدقي ما أقول.. وعلى كل حال سيتضح الأمر بعد دقائق!

* * *

وثبت إلى الوراء صائحة في هستيريا:

- سأصرخ!.. وساعتها ستشرح قصتك للجيران!

طقطق بشفتيه في أسى.. وهمس:

- وإذا كانت هذه دعابة سخيفة من طفل..، هل فكرت كيف ستفسرين موقفك؟!

- إذن سأوسعك ضربًا حتى أهشم عظامك.. ووقتها لن يمكنك إيذائي حتى لو فقدت الوعي..

عاود الضحك في ثقة.. ومن فمه خرجت الكلمات القاسية:

- ذات المشكلة.. كيف تفسرين للجيران ولأمي وللشرطة قيامك بتهشيم عظام طفل بريء؟.. أمانة طلب منك رعايتها.. إن القسوة لن تنتهى من هذا العالم أبدًا!

نفس الشعور الذي ينتابني حين ألعب الشطرنج مع (رفعت) وهو من هو في إجادة اللعب..، كل الخانات مغلقة وكل

لعبة لها خطرها الجسيم.. واتخاذ القرار مشكلة..
ولكن لابد من حل..
- إذن سأقيدك بالحبال حتى تصل أمك!
- عندئذ أصرخ أنا داعيًا الجيران كي يروا ما تخفيه النساء من شر خلف مظهرهن الرقيق..!
والتمعت أسنانه البيضاء المسوسة.. وأردف:
- ألم تفهمي بعد المأزق الذي أنت فيه؟
إن وعيي يتخلى عني..
يجب أن أكبل هذا السفاح أو أشله قبل أن أنام..
من الممكن أن أقتحم الشرفة وأصرخ كي ينقذني أحدهم لكن الاحتمال ما زال قائمًا

في أن تكون هذه لعبة أطفال سمجة، ولكم أمقت أن أرى نفسي - أنا الخجول البائسة - أحدث فضيحة في الحي كله من أجل لعبة أطفال، دعكم طبعًا من نظرة (مها) إلى صديقتها الهستيرية التي لم تتحمل رعاية طفلها ساعتين..!

عليك اللعنة يا (مها) أنت وطفلك الكريه!..

أية تربية تلك التي تنجب سفاحًا كهذا..؟!..

وفي ثقة - كأي زعيم (مافيا) نال من خصومه - دلف لحجرته مرددًا:

- سأدرس قليلًا حتى تستعدي!!

يا للوغد!..

وحدي وقفت في الصالة أترنح..

لا جدال هنالك!.. إن وعيي يتسرب.. وقدمي تتحولان إلى هلام.. ورأسي تزن طنين..
يجب أن أتصرف...
لن أصرخ.. لكني سآخذ بالحل الأحوط..
سأقيده وليكن ما يكون، وحين تعود (مها) سأخبرها بكل شيء.. ولسوف تصدقني.. نعم.. لابد أنها تعرف دعاباته وتتوقعها.
وجدت بكرة من (قطان) الستائر فحملتها في يدي وتحاملت على نفسي داخلة الغرفة.. ستكون معركة قصيرة لكنها ضرورية..
عندئذ رأيت..
رأيت هذا الشيء واقفًا في وسط الغرفة مديرًا ظهره لي..

وحين سمع خطواتي استدار للوراء نحوي..
كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدم..، أما عيناه فكانتا حمراوين تمامًا.. وكان الدم يسيل على فمه ويلوث ذقنه..

وفي تؤدة ألقى الجثة أرضًا وهمس لاهثًا:
- لقد طال الانتظار.. طال..
ثم اتجه نحوي وهو يهمس:



كان يمسك بجثة القط الأبيض وقد تلوث عنقها بالدمّ ..

- والآن فلينته كل هذا..!.. لقد استنفد (العاوّ) صبره!
الضباب يزداد كثافة.. الصمت يغزو أذني.. لم تعد لي قدمان..
فقط أذكر أنني سقطت على الأرض وهو يجثم بجسده الصغير فوقي.. مجرد طفل لكني أدركت أنه لم يكن سوى الشيطان ذاته..، هل كنت أصرخ؟.. لا أذكر.. فقط أذكر وجهه الشرس وعينيه و...
وشعرت بيد (مها) تنهضني من على الأرض وتهتف:
- أرى أنك و(مشمش) صرتما صديقين!.. لكنك تضيعين وقته بهذا اللعب يا (هويدا).. لماذا أغلقتما الباب بالمفتاح؟.. وأنت يا (مشمش).. ألم أقل لك أن تكف

عن قلب جفني عينيك؟!.. يا لها من عادة سيئة!.. ولماذا لوثت دمية القط بالحبر الأحمر ولماذا لوثت وجهك به؟!.. تبًا!.. إن هؤلاء الشياطين الصغار سيؤدون بنا للجنون!!

نهضت مضعضعة باكية.. وسألتها:

- الـ.. الأقراص.. الـ (ميبروباميت)؟

فهتفت في لا مبالاة:

- أنت تعرفين.. هذه العلب تصلح تمامًا لحفظ البهارات بعد أن تفرغ.. ولكن لماذا تسألين؟.. (مشمش)!... قلت لك مرارًا ألا تحبس القط في الدولاب.. حرام!... أحيانًا أحسبني قد أنجبت شيطانًا..!.. على أنني راضية عن انسجامكما معًا يا (هويدا)

خاصة وأنني ذاهبة إلى خالتي غدًا وسيكون عليك أن تكرري خدماتك اليوم..

وأدمعت عيناها.. وفي هستيريا ولولت:

- آه!.. يا خالتي الحبيبة!!

❋ ❋ ❋

- ١ -

ضحكنا حتى ادمعت عيوننا بعد أن أنهت (هويدا) قصتها..

القصة السادسة



يحكيها : الأستاذ (شكري)

وقال د. (سامي) وقد استعاد حيويته تمامًا:

- يا له من طفل!.. وإنني لأتساءل عن السفاح الذي سيكونه حين يكبر..، إنه شخصية (سايكوباثية)9 بكل ما في الكلمة من معان، وإن تكيفه مع أخلاقيات المجتمع فيما بعد لجدير بالدراسة..

ثم أردف وقد استعاد طبيعة المدرس:

- إن أقسام العقل الباطن هي (الهي) و(الأنا) و(الأنا العليا).

ويمثل القسمين الأخيرين ما نسميه الضمير.. والطفل عبارة عن (هي) خام بلا شوائب.. مجرد غرائز تتحرك بلا أدنى وازع من ضمير..، لهذا يتمتع الأطفال بالأنانية والشراهة والقسوة إلى أن

يعلمهم المجتمع كيف يكبحون غرائزهم.. وتنمو (الأنا) في عقولهم..
قال (شكري) في كياسة:
- لا أفهم كل كلماتك.. لكني أعتقد أن هذه القصة جيدة حقًا وبها ذلك الرعب المتوتر النظيف الذي أصبوا إليه..، هل لدى أحدكم اعتراض على أنها أفضل قصص الليلة؟
- لم نسمع قصتك بعد..
نظر (شكري) لساعته فوجد أنها الرابعة والربع فجرًا.. فهز رأسه في حيرة.. وتساءل:
- إنه الفجر.. لن يتسع الوقت..
- إنه الجمعة فلا داعي للاستعجال..
جلس (شكري) على أريكة واسعة وبدأ يسرد قصته..

* * *

قال (شكري):

المستغيث من الرمضاء بالنار..!..

هذا هو كابوس عمري..، الكابوس الذي نعرفه جميعًا.. أن يكون رجل الشرطة الذي نستنجد به من القتلة هو القاتل!، أن يكون البيت الوحيد الذي يختبئ به (حسن) من الذئب هو بيت الذئب!.

إن هذا الرعب لا يوصف..

لكنه كامن في شخصيتي منذ كنت شابًا..

* * *

الملجأ.. الملجأ..!..

العواصف تزأر من حولي وتلتهم أطراف معطفي.. في حين تنبح الكلاب في ديارها النائية..

والخيال..!.. ما أقسى الخيال!.. حين يكشر عن أنيابه في عقل مريض مثل عقلي..

عقل يسره بالتأكيد أن يرسم لي عشرات الخيالات المريعة والأطياف المرعبة.

عبر الحقول المظلمة أمشي..

أنظر للوراء فأرى ظلامًا..

أرنو للأمام فأجد ظلامًا..

أنظر لقدمي فأبصر ظلامًا..

كلما رفعت عيني لأعلى خيل لي انني سمكة ستسقط في (وعاء الدب الأكبر)

الذي ترسمه النجوم في السماء إذ تلتمع خلف أستار الغمام...

نجوم بكر ترسل ضوءًا أوليًا.. ولكنه ضوء وليد لم يتلوث بعد..

ذلك الضوء الذي سقط على وحوش ما قبل التاريخ.. وعلى (يوليوس قيصر).. وعلى جند (عمرو بن العاص).. وعلى (بيتهوفن)..

هو بعينه ذلك الضوء الخافت البكر..

حفيف النباتات تحتج على سحقها تحت قدمي..

بركة ماء ضحلة أخوضها هنا أو هناك..

الريح.. الريح قبل وبعد كل شيء..

إنني في حال سيئة..

ويجب أن أجد ملجأ ما في مكان ما..

* * *

لا تسألوني كيف وصلت هناك..
ربما هو خلل في محرك سيارة، وربما هو قطار تعطلت محركاته فوقف الظلام كوحش مريض همد جسده، وربما هو كابوس..
المهم أنني كنت هناك..
وأنني يجب أن أصل إلى مكان ما..
حيث يعيش الآخرون.
يجب أن أجد نارًا.. وأشم تبغًا.. وأسمع كلمات آدمية وإلا جننت..
إن الخوف يتشكل من حولي..
أرى وجهه وعينيه وذراعيه مبتورتي الأصابع تمتدان نحوي..

أشم رائحته العطنة الملوثة بالعرق..
وأسمع أنفاسه المذعورة اللاهثة..
وأحس بزحفه الحثيث في اتجاهي..
ملجأ.. ملجأ!

* * *

ثم رأيت النار.. دائرة اللهب الحى الدافئ تحيط بالمكان..
وما دام هناك لهب فهناك بشر..، لقد قالوا قديمًا: لا يوجد دخان دون نار.. وأقول أنا: لا توجد نار دون بشر..
أصابتني العدوى فتسرب دفء النار إلى قلبي...
وهرعت متلاحق الأنفاس إلى هناك..

وعلى الضوء الذهبي المتراقص كانت هناك نار يعلوها إناء لصنع الشاي مرتكزًا فوق ثلاثة أحجار - أو كما يقول العرب (أثافي) -.. وكانت هناك بندقية عتيقة على الأرض خطت عليها أرقام بدهان أبيض مما دلني على أنها بندقية خفير..

وعلى بعد أمتار كان ذلك العجوز جالسًا مدثرًا في معطف أصفر من مخلفات الحرب..، وكان يرشف كوبًا من الشاي الأسود..

كان وجهه - كالنجوم خلف الغمام - متسربلًا بالظلال التي ألقاها الوهج على ما حوله..

لكني ميزت شاربه الأبيض الكث ولحيته غير الحليقة..

اقتربت في تؤدة حتى بلغت موضعه.. وكان قد اصطنع لنفسه سقيفة صغيرة من أعواد الجريد تؤدي غرض حمايته من العواصف، على الأقل بالنسبة للعواصف القادمة من خلفه..

- سلام عليكم يا (حاج)..

قلتها في كياسة وأنا أقترب منه.

- عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. اقترب يا بنى..

كان صوته متحشرجًا غليظًا...

وإذ دنوت منه، كان وجهه الآن واضحًا لعيني.. أرى الحاجبين الكثين الأشيبين والعينين الرماديتين اللتين أفسدت الشمس والغبار بياضهما منذ دهر حتى صار

رماديًا هو الأخر..، وكانت سحابة بيضاء تغطي إحدى الحدقتين..

أما أسنانه النخرة من تحت شاربه الكث فقالت لي إنه يفرط في تدخين (المعسل)..

وكان يرتدي (بول أوفر) قديمًا رثًا تبرز شعيرات بيضاء من تحت ياقته العالية كأنها شعيرات من عنق ضبع عجوز..

- تشرب شايًا؟

قالها دون أن ينتظر ردي.. وفي يدي وجدت كوبًا من الشاي الأسود تتسرب سخونته المحببة إلى كفي..

آه من صوت الرشفة الجائعة تبعث الحياة في أعصابي الواهنة؟

قال وهو يتأملني في اهتمام:

- غريب؟

- هذا واضح.. أنت تعرف القرية كلها طبعًا..
- بل أنا لا أعرف أحدًا في القرية..!
معلومة غريبة لكنني فسرتها لنفسي بأنه وافد حديثًا إلى هذه المنطقة أو شيء من هذا القبيل..
أردف وهو يحسو الشاي:
- قلت لنفسي إن من يمشي هنا ليلًا هو ولابد غريب..
ولم يفسر أكثر.. بل مد أنامله في النار - دون أدنى خوف - والتقط بضع قطع مشتعلة من الفحم، ثم استدار للوراء والتقط شيئًا ما عرفت أنه (جوزة) صغيرة.. وبدأ يعبئ المعسل بأنامله، ثم رص الفحم فوقه

وبدأ يمتص الدخان الأبيض ويطلقه من منخريه في حنكة كقاطرة عجوز وحيدة..
- هل لك فيها؟
سألني وهو يقرب عصا الغاب مني فهززت كفيّ شاكرًا أن لا..
بعد دقائق من الصمت الذي له رائحة التبغ ؛ عاد يتكلم:
-.. إنهم يخشون (شاكر بك)..
في حيرة سألته:
- هل هو.. قاطع طريق مثلًا؟!
انفجر يضحك.. يضحك.. يضحك.. وصدره العجوز يهتز بالسعال كأنه صندوق خشبي مليء بالبلى..
يضحك ويسعل.. ويسعل ويضحك..
ثم بصق بعيدًا.. وقال:

- إن (شاكر بك) لا يوصف بكلمات.. لكنه موجود.. ويتحرك.. وكلهم رأوه ولزموا بيوتهم لأنهم يعرفون ما سيحدث في المرة القادمة..

- أعني.. هل هو شرير؟

قال وهو يتأملني في هدوء:

- ليس شريرًا.. المصيبة أنه ليس شريرًا.. بل هو إلى الحزن أقرب، لكنه ملعون.. وكل من رآه لم يعش يومًا آخر..

تحفزت هوايتي العتيدة لقصص الرعب، ودنوت منه أكثر:

- هلا حكيت لي قصته..؟

- ستخاف جدًا.. هل تفهم معنى هذا؟

- إن الخوف.. مهنتي..

- إذن سأحكي لك كل شيء..

*   *   *

سأحاول هنا أن أحكي القصة التي حكاها لي العجوز بأسلوبي أنا لأنه - بالطبع - لم يكن يملك أية حاسة أدبية..

لقد وقعت القصة في ثلاثينات هذا القرن...

وبرغم أنني سأحكي القصة بشكل و(تكنيك) أكثر رقيًا فإن سحرًا خاصًا لا يتكرر كان يغلف صوت العجوز المنهك وقرقرة (الجوزة) وقرقعة النيران والضوء الخافت والعاصفة..

إن هذا السحر لا تقدر على نقله سوى السينما، ولا يقدر أديب على تصويره ولا رسام على رسمه مهما بلغا من موهبة..

لهذا.. سامحوني.. سأقتل نصف سحر القصة بأسلوبي الأعرج..

كان (كمال باشا) يملك قصرًا في تلك المنطقة..

وكان طيب القلب، إلا أن زوجته التركية المتغطرسة كانت تختلف عنه كثيرًا، ولم يتهمها أحد يومًا بالرقة أو حسن معاملة الفلاحين..

لكنها لم تؤذ - على الأقل - أحدهم قط..

وكان لهما إبن يدعى (شاكر).، إبنهما الوحيد الذي يملك - بحكم الوراثة القريبة - كل هذه الضياع والأراضي والبشر..

ككل العاطلين بالوراثة كان مستهترًا فظًا، وحين كنت تراه وهو يمتطى صهوة جواده مرتديًا قميصه الأبيض مفتوح الصدر

تبرز منه خصلات شعره الأشقر، وعضلاته تتشبث بلجام الجواد، عيناه الزرقاوان الشريرتان تلتمعان في وجهه الوسيم.. كنت تظن أن هذا هو الشيطان ذاته قادمًا ليملأ الأرض جورًا..

وكان السوط في يده يتلوى كالأفعى باحثا عن ظهور ليمزقها..

أما (الحمزاوي) فهو أجير بسيط غُلّف كعباه بطبقة سميكة من (القشف) يضل فيها الثعبان طريقه بين الشروخ..، وفي عينيه اللتين أكل الرمد نورهما ترى نظرة قهر أزلية..

كان على النقيض من (شاكر) تمامًا.. ولم يكن ثمة مجال لأية مقارنة أصلًا..

لكننا سنفهم كل شيء بعد قليل...

❋ ❋ ❋

في ذلك اليوم كان أطفال (الحمزاوي) يلهون قرب القصر.. حين لمحوا (شاكر) عائدًا على صهوة جواده من سهرة حتى الفجر أمضاها عند المأمور...

وفي براءة أطلق أحد الصغار دعابة على (شاكر)...

مجرد دعابة طفولية من التي يتجاهلها أي شخص متزن..

لكن (شاكر) لم يكن متزنًا..

كان ثملًا تمامًا كعادته في ساعات الصباح الأولى..

لهذا لم ير الأمور كما ينبغي أن يراها..

يقول الشهود أنهم رأوا النيران - كحقيقة لا مبالغة - تنبعث من عينيه، واحمر وجهه.. وارتجف شاربه الأشقر الجميل..

ثم إنه ركل بكعبه بطن الجواد..

فانطلق هذا بين صفوف الأطفال يدوس هذا ويركل ذاك، على حين استخدم (شاكر) سوطه ليزيد. من جرعة الإيذاء..

مأساة قصيرة لا داعي لها أبدًا..

لكنها حين انتهت كانت هناك أربعة أجساد صغيرة محطمة تتلوى في الغبار..

وكان (شاكر) يلهث منهكًا فوق صهوة جواده، وقد بدأ يدرك - للمرة الأولى - بشاعة هذا الذي فعله..

وهرع الفلاحون ليروا ما حدث على صوت ولولة النسوة، وكان من بينهم والد

الأطفال.. (الحمزاوي).. الذي احتاج لخمس دقائق كي يفهم ما حدث..

وكان القاتل قد ترجل من على صهوة الفرس.. ووقف مشوش الفكر لا يدري ما يفعل وكيف يفعله..، إن الأمر لم يكن يحتاج منه سوى الفرار إلى صديقه المأمور الذي سيصلح كل خطأ.. لكنه - كما قلنا - كان عاجزًا عن التفكير..

في تؤدة اقترب منه (الحمزاوي) وعيناه في عينيه..

لم تكن هناك نظرة عتاب ولا لوم ولا غضب ولا شيء على الإطلاق.. فقط نظرة ثابتة لا تتزحزح..

وفي رزانة قال:

- ما كان يجب أن تفعل ذلك يا سعادة البيه!!

حتى في موقف كهذا لم ينس أن يبجل سيده!، أما (شاكر) فكان يرتجف من الانفعال لكنه لم ينبس ببنت شفة..

- ما كان يجب ذلك..!!

إن الفأس في يده والقاتل أمامه..

لقد كان ما حدث متوقعًا.. متوقعًا أكثر من اللازم..

ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر)..

وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه..

* * *

أما ما حدث بعد ذلك فلا داعي لذكره.

مطاردة الأب المذعور المكلوم في الحقول..، وكلاب المأمور ورجال الشرطة.. والجياد الثائرة الغضبى..

كان مشهدًا لا يوصف لما يمكن تسميته (صيد الإنسان)..

ثم عادوا به مكبلًا بالحبال ووجهه متورم من جراء كعوب البنادق والركلات، وتطوع كل من رجال الشرطة بإظهار حماسه لإرضاء المأمور بالمزيد من العنف..



ولم يتدخل أحد لإنقاذ (شاكر) ..

وحتى هو لم يحاول إنقاذ نفسه ..

وحوكم (الحمزاوي).. وأعدم.. فلم تكن أمامه فرصة نجاة..

وكانت هذه نهاية القصة..

أم هل أقول بدايتها..؟

* * *

بعد ذلك بأعوام بدأت القرية تثرثر..

حكايات كثيرة عن شبح يجوب الحقول في الظلام..

جثة (عبد الودود) المذعورة التي وجدوها، وجثة (محمد الحمزاوي) التي ارتسمت على وجهها أعتى علامات الهلع..

كل هذا ذكر الناس بالحادث خاصة والأخير هو شقيق (الحمزاوي)..

وبدأت الإشاعات تسري:
لقد كان (شاكر بك) يذكرهم بالشيطان أو - على أقل تقدير - بقوة شر كاسحة من دنيا ما وراء الطبيعة..
لهذا قالوا إنه عاد في صورة شبح كي ينتقم من القرية..
البعض قالوا إنه عاد في نفس صورته القديمة على صهوة جواده ليطارد الفلاحين البائسين بين الأحراش..
والبعض قالوا إنه يتخذ صورًا أخرى خادعة.. كطفل ضل طريقه.. أو فتاة حسناء تطلب العون.. أو خفير ساهر ينتظر..! (ألا تلاحظون شيئًا غير عادي هنا؟!..)

المهم أنهم أجمعوا على أنه يجذب الحمقى نحوه..
عندئذ تكون نهايتهم...
وفي الصباح الباكر يجدون جثة مذعورة في حقل ما..

* * *

وهنا يسأل البعض:
- كيف تصف الضحية صورة الشبح بعد أن ماتت؟!
اسألوا عن ذلك (أم فكري)..
فهي - كما تزعم - أفلتت من ثلاث محاولات متلاحقة لقتلها من قبل الشبح، وهي - بالمناسبة - أرملة (الحمزاوي)..

ولقد رأت فتاة جميلة، وشابًا وسيمًا، وشيخًا طاعن السن..
وكلهم طلبوا منها العون أو طلبت هي منهم العون ليلًا..
وعندئذ..
كان ذلك الشخص - أو الشيء - ينتظر حتى تدنو منه ويبدأ في التحول إلى حقيقته المريعة..
لكنها كانت تتوقع الشر دائمًا..
وكانت أسرع انعكاسًا في الفرار.. وأعلى صوتًا في الصراخ..
ولهذا ظلت حية حتى اليوم..

* * *

دارت الأيام.. وجاءت الثورة والتأميم..

ورحلت الأسرة إلى (أوروبا)، وبدأت في القرية قوانين جديدة وعلاقات طازجة وأسر أخرى لا تعرف شيئًا عن هذه القصة ..

لكن الرهبة ظلت حية في الأذهان...

إن الشبح لم يرحل مع عائلته بل استوطن القرية..، وظل يمارس هوايته القاسية مع الأهالي والغرباء.. بل وخاصة الغرباء الذين ترميهم حماقتهم في طريقه ليلًا..

ولا داعي للقول إن الخروج ليلًا صار نوعًا من (التابو) المحرم في هذه القرية يتوارثه الأبناء ولا يدرون سببه..، فإن كان الخروج محتمًا فليكن ذلك في جماعة..

والدرس الأكثر أهمية هو: لا تثق في مسافر متعب.. أو امرأة تستغيث بك.. أو طفل ضال.. أو - وهذا للعلم - خفير ساهر لم تره في القرية قط..

* * *

أنهى الخفير الساهر قصته وجذب أنفاسًا متلاحقة من (الجوزة) وسعل ثلاث مرات.. ثم نظر لي منتظرًا رد فعلي..

تبادر سؤال إلى ذهني.. سؤال هام جدًا:

- قلت إنك لا تعرف أحدًا في القرية؟

- بالفعل.. فأنا من عزبة قريبة..

- لكنك تعرف الأسطورة؟

ضحك.. والمزيد من البلى يتدحرج في الصندوق الخشبي:

- بالطبع.. هع هع.. وكيف لا أعرفها وأنا.. أنا....
ثم لم يكمل عبارته.. ونظر للافق.. وغمغم:
- اقترب الفجر..
- تبدو قلقًا..
قال وهو يضع (الجوزة) جانبًا:
- كل القصص السابقة حدثت قبيل الفجر..
- وأنت.. كيف لم يقابلك (شاكر) هذا بعد؟
نظر لي في غموض وانعكاس اللهب يلتمع على أنفه ولم يرد..
عدت أسأله وأنا لا أشعر بالارتياح:

- ما سر كلمتك عن الحزن الذي يشعر به الشبح؟
نظر لي مرة أخرى.. وغمغم:
- هل الشيطان سعيد؟.. لا أحسب ذلك يا بني..
أنا أفهم ذلك..
وأفهم كيف يشعر الشبح بالوحدة والذعر والحاجة إلى رفاق.. لكنه عاجز عن ذلك للأبد لأن مهنته هي أن يفزع الناس حتى الموت..
لكن الوقت ليس ملائمًا لهذه الأفكار..
لأن العجوز ينهض في تثاقل.. وينظر لي عبر ألسنة اللهب قائلًا:
- لقد حان الوقت!!
....

* * *

في الصباح وجدت جمهرة من الناس واقفين حيث كان الكوخ العشوائي الذي أمضينا فيه الأمسية..

اقتربت فسمعت أصواتًا تردد:

- هو الخفير من عزبة (النحال)..

- لقد مات!..

- وعلى وجهه علامات الذعر!

وفي مركز الدائرة رأيت العجوز راقدًا على ظهره وقد غطوا وجهه بمعطفه الأصفر المتآكل الذي هو من مخلفات الحرب..

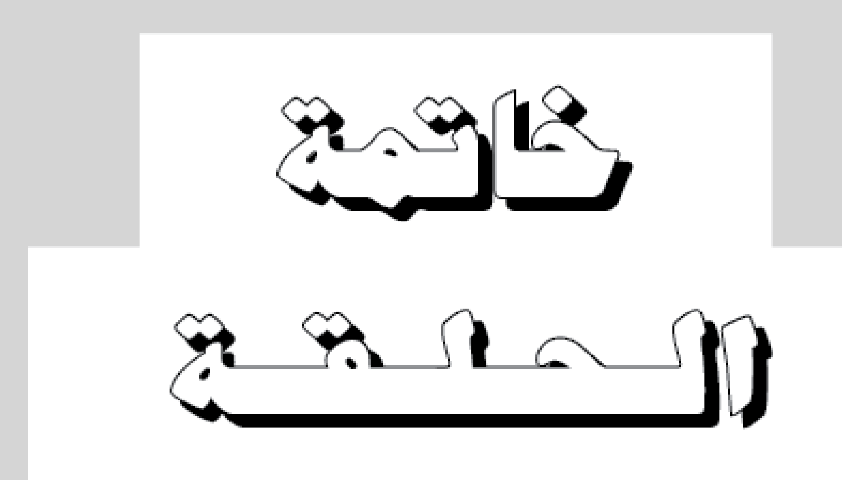
عندئذ عرفت أنه لم ينج بحياته طيلة هذه الأعوام إلا ليقابل (شاكر بك).. وليصير

قصة أخرى يحكيها الفلاحون في ذعر لأبنائهم ولأبناء أبنائهم..
حقًا إن حياة الأشباح لقاسية**!**..

*   *   *

خاتمة الحلقة

كانت أضواء الفجر الدموية تتسرب من النافذة وكأنها دماء الليل المسفوح ؛ حين أنهى (شكري) قصته..



يحكيها: د. (رفعت)

قلت له وأنا أهشم علبة سجائري الخاوية:

- قصة سخيفة يا أستاذ (شكري)..!.. فهي تشبه عشرات القصص المشابهة التي تحكى في كل مكان من العالم.. وليس جديدًا فيها سوى موت الخفير بعد أن ظنناه هو (شاكر)..

قال د. (سامي) مبتسمًا وهو يتثاءب:

- هي مجرد تكرار لفكرة (الرعب الموجه في اتجاه خاطئ).. وهي التي سمعناها في قصة د. (محمد) وقصة (هويدا)، وبالتالي هي لا تستحق انتظارنا لها طيلة الأمسية..

ابتسم (شكري) في غموض.. وقال وهو يعبث في جيبه:

- أنتم إذن لم تحسنوا فهم نهاية القصة!

- أية نهاية؟.. تقول إن الخفير قابل الشبح..

ضحك.. ونهض متجهًا إلى (هويدا) وهو يغمغم:

- نعم.. ولكن متى؟.. ولكن دعونا من هذا.. إن الفجر قد جاء وهو حتمًا لا يناسبني.. والآن أعتقد أن أفضل قصص الأمسية هي قصة الآنسة (هويدا) ما دامت قصتي لم ترق لكم.. هل لدى أحدكم اعتراض؟.. لا؟.. حسن.. ها هي ذي هديتك يا صغيرتي فلا تفتحيها إلا وأنت وحدك..

وقدم لها علبة صغيرة مغلفة بالورق اللامع.. ثم ابتسم لصاحب وصاحبة الدار

محييًا:

- كانت أمسية رائعة وكنتم خير مضيفين.. لكني مضطر للانصراف فورًا وأرجو ألا تكون هذه وقاحة مني..

وقبل أن يتكلم أحدنا.. كان (شكري) قد غادر الفيللا..

* * *

ما إن انصرف (شكري) حتى جلسنا صامتين هنيهة..

ثمة شعور عام بأن هناك شيئًا غير مريح في كل ما حدث وقاله (شكري) في ختام الأمسية..

تمطى د. (محمد) في كسل وابتسم:

- أظن أن الوقت قد حان كي ننصرف..

في لهفة صاحت مدام (ثريا) وكأنما أهينت:

- إن هذا لن يكون.. ليس قبل الإفطار!
- سيدتي.. لا تقتلينا خجلًا أرجوك.. كفانا أنكما لم تريا الفراش ليلة أمس..

أقسم د. (سامي) أغلظ الأيمان إنهما استمتعا بكل ثانية وإنهما لن ينسيا هذه الأمسية أبدًا.. بل إنه رجانا أن نكررها..!

قلت وأنا أتمطى أنا الآخر:

- وهكذا.. تنتهي حلقة الرعب الأولى..، وإنني لأسائل نفسي عما سيبقى منها بعد أن ننام للظهيرة..
- حذار وإلا فاتتك صلاة الجمعة..
- ربنا يستر!

وبدأنا نحتشد للانصراف، لبس من خلع الحذاء حذاءه.. وزرر من خلع المعطف أزرار معطفه.. واصطحبت مدام (ثريا) السيدتين إلى حجرتها لتمشطا شعرهما الذي غدا نوعًا من الليف بعد الأمسية..

كان الخدر اللذيذ - خدر السهر وبرد الفجر - يعابث كلماتنا وأفكارنا، وكنا نتحرك كأنما نحن آليات مبرمجة.. هل تفهم هذا الشعور؟..

وبالطبع تكون أقل دعابة كافية لجعلك تنفجر ضحكًا.. الدعابة التي ستندهش ظهرًا من مدى سماجتها وسخفها..!

سألني (عادل):

- هل حقًا ستعود للقاهرة بحالك هذه؟.. مستحيل!.. سنقرأ اسمك في صفحة

الحوادث وصفحة الوفيات معًا..

- إذن سأنام عندك حتى أفيق وأسافر بعد صلاة الجمعة..

- ليكن...

دنت مني (هويدا) وكان السهر قد لعب برأسها تمامًا حتى أنساها قناع الجلال والرزانة الأنثوية، فتثاءبت - كفرس النهر - واعتصرت ذراعي في قبضتها.. وقالت:

- قل لي.. ما هو الغريب في خاتمة قصة (شكري)؟

- لا أدري حقًا..

- ولماذا انصرف بهذا الأسلوب الدرامي..؟

ابتسم في استخفاف:

- ربما لأن قصته كانت واهية ومملة.. وهو أدرك ذلك قبل أن نصارحه..، ولهذا لم يتحمل خيبة الأمل..

- قال شيئًا عن الفجر...

- هل قال ذلك؟.. لا أذكر..

في الخارج كانت الطرقات غارقة في الماء والوحل وكان الهواء نديًا مغسولًا كأنه خلق لتوه..، وكان ضوء النهار الأزرق الباهت يرتمي في كسل عبر الطرقات..

لوح د. (سامي) وزوجته بأيديهما لنا إذ احتشدنا في سيارة (عادل) وسيارتي..

وانطلقنا إلى ديارنا بعد أمسية طويلة.. طويلة..

* * *

كان نومًا بلا أحلام...

نومًا أسود مغلقًا بألف مفتاح..

كنت فقط أفتح عيني من حين لآخر وأتساءل: أين أنا؟ متوقعًا أن الباب بالتأكيد عند قدمي وجهاز الراديو على يساري.. ثم أجد كل شيء مختلفًا فأجفل وأنهض.. وبعد جزء من الثانية أدرك أن هذه الستائر الزرقاء وهذا الدولاب الأبيض هي أجزاء من حجرة نوم الضيوف عند (عادل)..، من ثم أريح رأسي على الوسادة وأبتلع ريقي بصوت مسموع.. وأغيب عن الكون..

....

- (رفعت)..!.. (رفعت)!..
هامسًا أول الأمر.. ثم بعنف أكثر..
وفي النهاية جثم على صدري - كالكابوس - وشرع يهزني كأنما ينفض الروح من جسدي..، فهمست في وهن:
- (عاد..).. (عادل).. مـ.. ماذا هناك؟
شعرت بسماعة الهاتف الباردة تندس في أذني.. وسمعت (عادل) يهتف في عصبية:
- حدثه!
- مـ.. من هو؟
- (شكري) طبعًا يا أحمق!.. هو على التليفون..
- (عادل).. أنت سمج.. أنا لم أنل كفايتي بعد.. أرجوك أن...

ولم أكمل العبارة لأني غبت عن الكون ثانية..

عادت الاهتزازات.. وسمعت صوتًا معدنيًا مألوفًا يهتف من السماعة:

- صباح الخير يا دكتور..!.. إنها الحادية عشرة..؟

- و..و.. كيف صحوت أنت بعد سهرة البارحة..؟

- صحوت لأني لم أسهر معكم..!!

- ماذا تعني؟

- أعني أنني لم أستطع الحضور لأني مريض بالأنفلونزا.. ولم أستطع الاتصال بكم لأعتذر.. إنها الأمطار..!

وثبت في الفراش كالمجنون راميًا الأغطية بعيدًا..

- ماذا تقول؟!

فأكد لي ما قاله مسبقًا وهو يعطس..

- إذن من كان معنا أمس؟!

- وهل كان هناك أحد معكم أمس؟

نظرت إلى (عادل) في حيرة فهز رأسه.. وأشار لي أن أنهى المكالمة ثم أشعل سيجارة امتصها في قلق..

وضعت السماعة وأخذت منه سيجارة أخرى.. وهتفت في حنق:

- إن هذا المتحذلق يلهو بنا!!

- هل تظن ذلك؟

- إنه يحاول أن يخلق قصة سابعة!

نفث عادل الدخان في فتور.. وغمغم مضيقًا عينيه:

- يبدو صادقًا..!

- ماذا تعني؟..
هز كتفيه غير عالم بالرد المناسب، وقال:
- لا أدري حقًا..
كنت قد نهضت من الفراش، وشرعت أبحث عن نظارتي جوار المنبه الموجود على (الكومودينو)..، المنامة الشتوية ذات الخطوط الطولية الزرقاء.. وربطة عنقي التي سقطت من فوق الشماعة حيث علقتها في إهمال..
- ارتد ثيابك واغسل وجهك.. وتعال لتأكل شيئًا..
وفي الصالة كان ابنه يلعب هنا وهناك في حين كانت (سهام) بعد غافية، وكان (عادل) قد أعد لنفسه وللطفل بعض البيض

المحترق والخبز المتفحم والشاي الشبيه ببول مرضى السكر..
جلست متثاقلًا على المائدة التهم بعض هذه الاشياء المفزعة، وأرسم بوجهي تعبيرات سخيفة علها تضحك الطفل الذي وقف يرقبني في حيرة ورعب فاغر الفم متصلب الجسد..
- وجه ابنك يدلني على أنه مصاب باللحمية يا (عادل)..!
- مرحى!
ثم إنه قال في فتور وهو يحك ذقنه:
- هل تدري فيما أفكر؟.. إن الذي كان معنا ليلة أمس لم يكن (شكري)!!
- ماذا تعني؟.. هل سنعود لهذا؟
اتسعت عيناه وحملق في وجهي:

- ألم تفهم نهاية قصته؟
ومضى يتجول في المكان عاقدًا يديه خلف ظهره مفكرًا بصوت مسموع:
- أنا رجل شرطة، وحين تحدث جريمة قتل يكون أول سؤال نسأله هو: من آخر من رأى القتيل حيًا؟.. ولقد مات الخفير في قصته.. ومتى؟.. عند الفجر.. عندما لم يعد هناك جزء باق من الليل كي يقابل الخفير قاتلًا آخر.. هل تفهم هذا؟.. لقد حكى (شكري) قصته بعد أن حذف منها جزءًا صغيرًا، لكنه لمح لنا بما حدث بدقة..
ونحن لا ننسى آخر كلماته الغامضة: (نعم.. لكن متى؟، أنتم لم تحسنوا فهم القصة).. هل فهمت؟
وهرش مؤخرة رأسه:

- ثم فراره المذعور عند الفجر.. كل هذا يشير بإصبع الاتهام نحوه، لكننا لم نكن على استعداد كي نفهم..

قلت في توتر وقد بدأت أفهم:

- يا للهول!.. إذن (شكري) هو..

- هو (شاكر بك) نفسه.. إن تشابه الاسمين واضح..

- ولماذا يفضح نفسه؟

- لأنه يتسلى.. يلهو بنا.. وكان الفزع هو هدفه الوحيد!!

- هذا الافتراض يصعب إثباته..

ابتسم في ثقة ونظر لي:

- بالعكس.. يمكننا إثبات أن (شكري) الحقيقي كان مريضًا أمس ولم يغادر الفراش... ويمكننا البحث عن القرية التي

كان بها إقطاعي إسمه (شاكر كمال) قتله فلاح إسمه (الحمزاوي)، وعن خفير من عزبة الـ... الـ...

- النحّال...

قلتها مصححًا وهن ذاكرته.. ثم أردفت:

- إن هذا مفزع.. إذن فلتبحث وبسرعة..

- بقيت نقطة نسيناها..

- وما هي؟..

- الهدية التي قدمها لـ (هويدا).. ماذا كان فيها؟!

* * *

- فيها ساعة جيب ذهبية نقشت على ظهرها عبارة بالفرنسية.. ومعها بطاقة صغيرة..

قالتها (هويدا) وهي تمد يدها لنا بالعلبة التي أهداها إياها (شكري) أو (شاكر)..
أمسكت بالساعة التي كانت نقوشها وأناقتها خير دليل على ثمنها.. وكانت رائحة العظمة الغابرة تفوح منها..
قلبتها في تؤدة وتأملت الحروف المنقوشة على ظهرها، وبلغتي الفرنسية المتوسطة استطعت أن أقرأ العبارة التالية:
صنعت في سويسرا خصيصًا للسيد (شاكر كمال).
لقد كان هذا الـ (شاكر) ثريًا إلى درجة امتلاك ساعة (عمولة) من (سويسرا) عليها اسمه، والحق يقال أنها كانت تنطق بالترف والفخامة.. حتى أنني شعرت

بغبطة لأنها ستكون لي يوم أتزوج (هويدا)!..!.
أما البطاقة فكانت مكتوبة بالعربية وبخط أنيق للغاية:
- لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!!
ظللت أتأمل كل هذا في غباء..
فصاحت (هويدا) في براءة عذبة:
-.. ماذا يضايقك في كل هذا يا (رفعت)؟!
- يضايقني كل هذا..!
واستطردت في غموض:
- لقد كان (شكري) على حق.. إن قصته هي أكثر القصص رعبًا في حلقة الرعب..!!

* * *

في الأيام التالية احتشدت علامات الاستفهام..

(عادل) اكتشف أن قصة (شكري) صحيحة، وأن القرية - مسرح الأحداث - تقع قرب (الإسكندرية).. ربما على مسافة أميال معدودة من الفيللا التي قضينا فيها أمسيتنا تلك.

(شكري) أثبت يقينًا أنه لم يكن معنا في تلك الأمسية..، وقال إنه كان يرغب في أن يشاركنا حلقة الرعب لأنه - كما قال - يحب هذه الأشياء كثيرًا..!

على أنه لم يصدق قط - ومن يلومه؟ - قصة شبيهه الذي قضى معنا أمسية كاملة

دون أن نشك فيه، وهو مصر على أن الأمر كله دعابة حاولنا إقناعه بها لنسخر منه..

أما د. (سامي) فاكتشف أمرًا أكثر طرافة..

هل تذكرون الصورة التي التقطتها زوجته كنوع من اللعب بأعصابنا بعد روايته عن الزائرة؟..

هذه الصورة كانت تظهر وجوهنا المنبهرة جميعًا في ضوء (الفلاش) لكنها لم تظهر (شكري) بتاتًا..!..

كان مكانه في الصورة فارغًا، برغم أنني أذكر جيدًا أنه كان جالسًا إلى يميني يحك لحيته في ضيق ويتمنى لو كانت الأمور أكثر وضوحًا في قصة (لميس)..

كان في مركز الصورة.. لكنه لم يبد فيها..

* * *

لقد انتهت حلقة الرعب..

ولم يعد أمامي سوى أن أجمع أوراقي وأنام..

تسالونني عن رأيي في كل هذا.. أقول لكم إنها مجرد انطباعات لا حقائق..

لا شك أنني سأبدو سخيفًا إذا ما تحدثت عن شبح الثري المستهتر الذي سئم حياة الأشباح وراح يفتش عن الصحبة..

وكانت هذه الصحبة هي نحن..

وكأي شبح يحترم نفسه كان يهوى الرعب..

هل تذكرون كيف بدأنا نحكي أقاصيص الرعب؟ ومن كان المحرك الذي دفعنا دفعًا لهذه الأحاديث الرهيبة دون أن يكل أو يرهق..

وكلما سقط واحد منا فريسة النعاس كان هو يزداد نشاطًا ويحركنا حيث يريد في سلاسة غير عادية..

لقد كان يلهو ويسلي نفسه..

وفي نهاية الأمسية أخبرنا من هو..

لكننا لم نفهم...

لم يكن الخوف معنا.. لأنه كان أحدنا!

كان (شكري) هو الخوف البري غير المبرر ذاته، وكان يحيا في كل قصة من القصص..

كان هو الشيء الغريب الذي شعرت به (سهام) يراقبها من المرآة، وهو النذير الغامض الذي جعل قط د. (محمد) يجفل، وهو الذي جعل حشرات (يوسف) تتوحش، وهو الذي كان يدخل فيللا د. (سامي) كل ليلة..، وهو الشيء غير المريح الذي أفزع (هويدا) في عيني الطفل..، وهو ذات الشيء الذي كان يفر منه بين الحقول:

كان (شكري) موجودًا في كل هذا..
لأنه هو الخوف الأولي البكر..
وفي تلك الليلة لم نكن ثمانية..
بل كنا سبعة..
وكان الخوف ثامننا..

* * *

وبعد...

كانت هذه هي حلقة الرعب الأولى التي ستحيا في ذاكرتنا ما حيينا.. ولا ريب في أنها ستكون الأخيرة بالنسبة لأكثر من شاركوا فيها.. لأن الظروف لن تتكرر مرة أخرى، وهم لن يتركوها تتكرر..!

أما أنا...

فالقارئ يعرفني جيدًا..!، ويعرف أنه لو كانت هناك حلقة رعب أخرى في أي مكان من الكون فأنا - بلا جدال - عضو فيها..!

وكيف كان لي أن أعرف أن لقائي مع د. (لوسيفر) قريب.. وأنني سأدخل معه عالمًا

آخر من القصص الكابوسية التي لا تنتهي، وكيف كان لي أن أعرف أنني سأكون طرفًا فيها جميعًا؟..

ولكنني - كما هي العادة - كنت ساذجًا.. ساذجًا...

كانت أحداثًا رهيبة.. ولسوف تشاطرني الرأي حين أحكيها لك..

لكن هذه حلقة أخرى.

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

- ١ -

- ٢ -

القصة الخامسة - أنا و(العاوّ)!

- ١ -

- ٢ -

القصة السادسة – حكاية ليلة واحدة..

خاتمة الحلقة

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايـــات تحبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

حلقة الرعب

اجتمعوا في تلك الليلة يتحدثون
عن الرعب .. الرعب الوحشي الأوّلي
الذي لا تدري له سببًا، كانت لدى كل
منهم قصة .. وكان لكل قصة مستمعون،
وهكذا دارت حلقة الرعب، لكنهم لم
يدركوا أن خيوط الفجر الأولى ستنسج
لهم قصة أكثر هولًا من كل ما
حكوه وسمعوه ..!





د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة الكاهن الأخير

الثمن في مصر ــــص
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1]

سيجموند فرويد: أبو التحليل النفسي.

[←2]

يؤمن كثير من نقاد الأدب أن (الديكاميرون) هي الميلاد الحقيقي لفن القصة القصيرة.

[←3]

أرجو ألا ينسى القارئ أن أحداث القصة في الستينات.

[←4]

نست (سهام) هنا أن د. (رفعت) موجود.. وهو ثاني خطيب لـ (هويدا)..، كانت زلة لسان تداركتها سريعًا.. لكنها ستكرر نفس الخطأ مرارًا..!

[←5]

قصة (دانييل ديفو) الذي يؤكد أنه استوحاها من بحار إسمه (الكسندر سلكيرك). لكن التشابه بينها وبين أسطورة (حي بن يقظان) يثير الشك حول ديفو)).

[←6]

جنون الاضطهاد.

[←7]

معذرة على التفاصيل لكن د. (سامي) يحب دائمًا أن يتخذ دور المعلم، وعلينا أن نتحمله في شجاعة!

[←8]

حقيقة.. وللأسف عاد العقار للظهور في بعض الدول النامية برغم أنف منظمة الصحة العالمية..

[←9]

سايكوباثية: شخصية شريرة مريضة في تكيفها مع المجتمع..